



طَلَقَةٌ تَنْوِيرٌ

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

حول التشويه "الوظيفي" للواقع العربي

بشار شخاترة

طلقة تنوير 79: نحو نظرية وحدوية للقرن
الواحد والعشرين

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي - عدد
1 كانون الثاني 2022

حول التشويه "الوظيفي" للواقع العربي/
بشار شخاترة

كرونولوجيا مفهوم وحدة الأمة العربية
المعاصر/ إبراهيم حرشاوي

المصلحة الاقتصادية في الوحدة العربية
كمسألة رياضية/ إبراهيم علوش

الصفحة الثقافية 1: عن "غريب" ألبير كامو
بين الأمس واليوم/ مريم نصرالله

الصفحة الثقافية 2: ثلاثة أشكال للتهريج/
طالب جميل

الصفحة الثقافية 3: عن شعارات الحرية
وفيلم "أميرة"/ كريمة الروبي

قصيدة العدد: لقاء عربي/ عدنان الراوي

كاريكاتور العدد: ناجي العلي عن لقاءات
محمود درويش الطبيعية

لمتابعنا انظر:

لمتابعنا على فيسبوك، ابحث عن:
لائحة القومي العربي/ الصفحة الرسمية

روابط صديقة:

موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:

arab.nationalist.moderator@gmail.com

من أجديات الحروب أنها تستهدف الوعي، أداها النافذة هي الكلمة التي يجري تصويبها إلى وعي الخصم أو العدو، تستهدف القاعدة الشعبية أو الجبهة الداخلية، وفي مسيرة الصراع العربي مع الاستعمار وأداته الرئيسية المتمثلة بكيان الاحتلال (إسرائيل) كانت الدعاية والإعلام حاضرين في كل مفاصل الصراع، حتى وصلت حيثيات الصراع إلى وجود (أل) التعريف من عدمها وإلى النقطة والفاصلة، ففي هذا الصراع المتواصل منذ وعد بلفور الذي صيغ بعبارات ألغت من الوجود شعباً ينتمي إلى أمة ضاربة في عمق التاريخ والجغرافيا وخلقت من الوهم والخرافة ومن شرانم البشر شعباً وأمة وأوجدت لهم وطناً لم تطأه أقدام أسلافهم منذ كان بشرٌ على الأرض، وفي سياق هذه المعارك التي تدور في فضاء الوعي والوعي المضاد تطل المواد الإعلامية والمؤلفات المشبوهة ناطقةً بلغتنا تستخدم عباراتنا وشعاراتنا وتزاد على جمع أمتنا وثوابتها، تفخخ مظلماً وشعاراتنا وأمانينا وثوابتنا بحيل الكلمة وبريق العبارة وارتفاع السقف، حتى تظلل الإنسان العربي بسيول الوعي الزائف جارفة أجدياته القومية.

وضمن سياق العدوان على مستوى الكلمة يتم التسويق في الفكر السياسي لمصطلح الدولة الوظيفية وأحياناً الشخصية الوظيفية أو الكيان الوظيفي بشكلٍ ظاهره وطني وغيور على مصلحة الأمة وفي باطنه قنبلة موقوتة تنفجر في ميعاد الحصاد حين أوانه، وهذه مصطلحات تناولتها الأقلام بكثير من الأخذ والرد، لكنها يجمعها جامع أن الدور الوظيفي يقصد به حالة التبعية السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية أو الاجتماعية أو جميعها من قبل طرفٍ تابع يمثل الطرف الضعيف والخاضع للهيمنة لصالح الطرف المتبوع وهو الطرف القوي وهو في الغالب يمثل مركزاً من مراكز الإمبريالية العالمية، فقد ظهر مؤخراً مؤلف إلى حيز الوجود يعالج هذا المصطلح ضمن التوصيف الذي وصفناه في ذيل الفقرة السابقة ومقدمة هذه الفقرة.

الدور الوظيفي تطور مع الوقت فلم يعد يقتصر على الشكل التقليدي الذي صاغته الدول الاستعمارية بتقسيمها للعالم - الذي هيمنت على معظمه في مراحل تاريخية متعددة - إلى دول رسمت حدودها على مقاس مصالحها أو على مقاس حدود الصراع فيما بينها، وبالتالي برز هناك كثير من التشوهات في الجغرافيا السياسية للدول، وهذا استتبع صراعاً وثوراتٍ سال في سبيلها الكثير من الدماء أدى أحياناً إلى كسر هذه الحدود وتصحيح الوقائع السكانية ومطابقتها مع الجغرافيا، فالأدوار الوظيفية صناعةٌ رائجة لدى القوى الاستعمارية، فهناك شخصيات



سياسية أو إعلامية أو اقتصادية تقوم بمثل هذا الدور وتنشط ضمن مجتمعها أو تكون عابرة للحدود بين الدول بما تقدمه من وجبات ثقافية ومعرفية أو دينية، وهي في حقيقتها ترويحٌ لمشاريع الهيمنة الاستعمارية، ويتسم هذا النوع بالتورية والمراوغة وممارسة الخداع، فالكثير من هؤلاء نشاهدهم عبر الفضائيات العربية يومياً يقدم ما يخدم المشغل، ويمتلكون القدرة على تزوير الحقائق وخلق سواتر تقلب المفاهيم لدى المتلقي.

وقد توكل مهمة الدور الوظيفي إلى منظمات حملت السلاح وقاتلت العدو وقدمت تضحيات وشهداء، وهذا الفعل رفع من شأن بعض منظمات التحرر وأعطاهم القدرة على تمرير الكثير من التنازلات تحت مسمى "الشرعية الثورية"، ولا أدل من ذلك إلا حركة فتح التي قدمت قوافل من الشهداء في سبيل تحرير فلسطين كاملة لينكشف الضباب عن مشاريع تسوية أبرمتها قيادة المنظمة، ولتضطلع بدور الحارس الأمين لدى كيان العدو ورأس الحربة في مواجهة الشعب العربي الفلسطيني.

وفي هذا الحقل تطل علينا مؤلفات تثير التساؤل عن

المغزى منها تنصدي للبحث في مسألة الدور الوظيفي وتقدم نقداً لاذعاً للتوظيف السياسي، في غمرة تقمص تلك المؤلفات ومؤلفيها للتوظيف السياسي والثقافي الخادم للخطاب الاستعماري، وتحت ستار من النقد للظاهرة الاستعمارية وإفرازاتها تنفت سمومها، ومن باب نقد الدور الوظيفي والكيانية الوظيفية تلج إلى محور المقاومة وتضعه ضمن تصنيفات عبثية متفاوتة، فمثلاً تصنف تلك المؤلفات ومؤلفوها الجمهورية العربية السورية ككيان وظيفي تمارس دوراً (قمعياً) تستر فيه دورها الوظيفي، وتستطرد في تصنيفاتها على مستوى آخر موجهة نقدها إلى حزب الرب كمنظمة تطمح إلى التطور إلى دولة تمارس دوراً وظيفياً، وهذا التصنيف فيه تمام واضح مع خطاب قوى 14 آذار والخطاب الصهيوني والغربي، ومن باب (المنهج العلمي)، وبأسلوب ماكر يجري تصنيف الكيان الصهيوني ككيان وظيفي على ذات المستوى مع دول كسورية ومصر، معتبراً أن الجميع مصنف كأدوات وظيفية بيد الاستعمار، وبالتالي تتساوى الرؤوس ويصبح الجميع في منطقتنا العربية كيانات تصارع (شعوب المنطقة) لمنعها من التحرر من نير القبضة الاستعمارية التي صاغت المنطقة في مرحلة تراجع الاستعمار في منتصف القرن العشرين، ويغدو الشتات اليهودي القادم من كل أصقاع الدنيا مكوناً أصيلاً في بلادنا، يواجهون قمع الحركة الصهيونية وهو ذات القمع الذي تمارسه الكيانات الوظيفية المصطنعة على شعوب المنطقة، وهنا يكمن الخداع والمراوغة وتزييف الواقع، وتغدو دول أصيلة كسورية مثلاً على ذات المرتبة مع الكيان الصهيوني.

ويحاول أولئك عبر هذه التنظيرات التأسيس للخرافة الصهيونية عبر القول إن العامل الأساس وليس الوحيد لوجود الكيانات الوظيفية وبقائها متعلق بشرط يقع خارجها، وإن جميع هذه الكيانات تكافح من أجل البقاء، وبالتالي لا بد لها من أن ترتبط مع الدول الاستعمارية وتنفذ أجداتها في بلادنا، بحيث يُسقط الحالة الوظيفية لكيان الاحتلال في فلسطين على الدول التي تناهضه وتخوض صراعاً مفتوحاً معه منذ أن تأسس.

هذه المعالجة الخبيثة للواقع تركز أيضاً إلى وجود حقيقي لكيانات أنشئت بفعل الاستعمارين البريطاني والفرنسي في بلاد الشام مثلاً، كلبان والأردن في سبيل تمزيق وحدة سورية الطبيعية، وتتناسى أن سورية الحالية قاومت الاستعمار واستعادت جزءاً مهماً من حالة التقسيم التي فرضت عليها عبر استعادة وحدة أجزاء كان يمكن أن تكون دولاً واقعية الآن، فقد كانت خطة فرنسا إنشاء دول في حلب والساحل السوري وحووران وجبل العرب ودمشق، لذلك بقيت سورية الحالية كياناً طبيعياً ومحافظاً على الانسجام التاريخي لمجتمعها وجغرافيتها باستثناء ما اقتطع منها في لبنان والأردن وفلسطين،



العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

فحقيقة وجود حالات وظيفية نجمت عن تقسيم سورية الطبيعية، كالدول الثلاث السابق ذكرها، أصبحت منطلقاً لوضع الدولة السورية ضمن ذات التوصيف، وتغيب الحقيقة الواقعية والمائلة أن كيان الاحتلال، إضافة إلى لبنان والأردن، مارسوا أدواراً متعددة، وأحياناً متناسقة، في النيل من الدولة السورية، وأخرها الحرب المائلة على سورية منذ عقد، ومع هذا يبقى هناك فرقاً شاسعاً بين كيان وظيفي أوجده الاستعمار ضمن مكونات أصيلة وطبيعية بفعل التقسيم، وبين كيان وظيفي مصطنع من الألف إلى الياء.

ويتبنى (المثقفون) الوظيفيون "الربيع العربي" كوسيلة لحل الإشكالية الوظيفية التي تعاني منها منطقتنا، بوصولهم إلى استنتاج أن الحل يكمن في تحطيم الكيانات القائمة والأنظمة السياسية فيها، وذلك باستدعاء تنظيرات لينين حول حق الشعوب في تقرير المصير بنقدها من جهة، وتبني تنظيرات روزا لوكسمبورغ في هذا المجال لجهة استحالة تحقق السيادة والاستقلال في عالم تسوده الرأسمالية، وأن الدولة أداة هيمنة تستعمل داخلياً وخارجياً لتكريس سلطة رأس المال وتدفع باتجاه الشحن العاطفي القومي (حالة شوفينية)، وبالتالي فتقرير المصير لا يجب أن يستند إلى الانفصال وتشكيل كيان أو دولة ستقلب إلى حالة قومية لا طبقية، وبالتالي يجب أن يستند الحق في تقرير المصير على المجموعة الاجتماعية التي تشق وجودها من ذاتها ومن احتياجاتها الطبيعية لا من الصراع مع الآخر، واستناداً إلى رؤية تشاركية عامة تقوم على دور المجموعة الاجتماعية المعنية في سياق التحرر من الرأسمالية، في ظل انتفاء الامتيازات الوطنية والقومية، وذلك بتدمير الكيان الوظيفية كأداة لتقرير المصير والتحرر من الاستعمار، وهو المفهوم الذي سيستنتج (إسرائيل) بصورة آلية على اعتبار أنها تتطور نحو مفهوم الدولة وتجاوز صيغة الكيان الوظيفي، وفي أسوأ الاحوال سيحافظ على الوجود اليهودي المهاجر والمستوطن في فلسطين بشكل طبيعي ينتفي معه القول بالتحريم وإعادة الأرض والحقوق إلى أصحابها الشرعيين وهم بالقطع الفلسطينيين.

ويتم القفز فوق الأنظمة التي تدور في الفلك الاستعماري نحو سورية وحزب الرب، وصولاً إلى اليمن التي يزعم فيها هؤلاء أن العهد الجمهوري ودعم عبد الناصر للثورة في اليمن قد حطما طور الدولة الناشئة على يد الدولة الإمامية ليتم تحويل اليمن إلى كيان وظيفي مستندين إلى كاتب يميني يدعى عيسى بلومي في كتابه "تدمير اليمن".

هذا الخلط الضبابي يحرف النظر عن حقيقة رسوخ الوجود القومي العربي ووجود الأمة العربية عبر التاريخ، من دون النظر إلى أن حالة التجزئة التي أوجدها الاستعمار وقاتل للحفاظ عليها يشق الطرق كان الصراع والمواجهة فيها دائماً من نصيب الجمهوريات العربية كسورية واليمن ومصر وليبيا والجزائر والعراق. ويمارس كتاب الناتو خداعهم وتلفيقهم في مواجهة هذه الدول التي حملت لواء مقارعة مشاريع الاستعمار خدمةً لذات الأهداف الاستعمارية، ولكن من باب التحريض وتسويق مشروع التدمير الذاتي الذي تبنته كونداليزا رايس عبر الفوضى الخلاقة وترجمها على أرض الواقع هنري برنار ليفي، والذي ظهر فقط في الدول التي ينعتها هؤلاء بأنها كيانات وظيفية في تعامٍ مقصود عن دول الأدوار الوظيفية الخاضعة مباشرة للهيمنة الأمريكية، مع إشارة إليها هنا وهناك، وأحياناً بإسهاب في بعض المواقع كالحالة الأردنية والفلسطينية، والغاية منها التمهيد لوراثة الكيان الصهيوني للكيان الأردنية والفلسطينية. ففي الحالة الفلسطينية الأردنية يتبنى (المثقفون) الوظيفيون القول إن العودة إلى التاريخ يفقد القضية الفلسطينية عنصراً مهماً من قوتها لحساب الرواية الصهيونية، في تسليم مبطن بخرافات التلمود وكأننا شعبٌ طارئٌ نناكف الوجود اليهودي التاريخي في بلادنا، وبالتالي يرون التركيز على المظلومية الفلسطينية في سياق إحراج المستعمر الأوروبي الذي دعم وجود كيان يهودي في فلسطين بفعل (المظلومية) اليهودية في أوروبا، وهذا الدعم جاء للتخلص من عبء الشعور بالذنب، فيرى هؤلاء أن نقطة قوة القضية الفلسطينية تتبع من ذات العامل الذي أوجد كيان الاحتلال، وأن أوروبا تخلصت من عبء الذنب على حساب ذنب أكبر بتشريد الشعب الفلسطيني، داعين الأوروبيين إلى معالجة عادلة للقضية يصلون فيها بشكل واضح إلى التعايش وحل قضية الوجود اليهودي بطرق واقعية تستند إلى حل يقضي على الواقع الوظيفي للكيان الصهيوني، ومعها إلحاقاً الأردن وفلسطين، بأن تقرر شعوب المنطقة مصيرها وحقها في إقامة الدولة وليس كيانات وظيفية.

ويسترسل مناهضو الدولة الوظيفية في تبرير طروحاتهم من خلال الادعاء أن الحركة الصهيونية صادرت (الشعب اليهودي) وكان هذا الشعب (لا يوجد أساساً «شعبٌ يهودي») متكون طبيعياً في هذا البقعة من الأرض ويتطلع إلى إقامة دولته المستقلة مع غيره من المكونات بعيداً عن التدخل الاستعماري، لكن الحركة الصهيونية، وللحفاظ على هيمنتها، تمارس القمع واختلاق الحروب هرباً من مواجهة الاستحقاق المتمثل بحق



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد



اليهود مع غيرهم في تقرير مصيرهم، واضعين الحركة القومية العربية وحركات التحرر الوطنية في بلادنا على قدم المساواة مع الحركة الصهيونية بإيجاد المبررات المستمرة للحركة الصهيونية لمصادرة اليهود والهيمنة على قرارهم، ويتم الاستشهاد بما يسمى الشبكة اليهودية الدولية لمناهضة الصهيونية، وتصبح المشكلة من حيث الأساس أن الصهيونية حركة عنصرية، وأنها تطمس حقيقة اليهود التي تقوم على التسامح، ويطرحون حلاً لتجاوز هذه الإشكالية إلى تخلي اليهود في (إسرائيل) عن الصهيونية وعن (إسرائيل) نفسها أو الهجرة المعاكسة أو الانضمام إلى "المستعمرين الفلسطينيين"، في تدليس واضح يساوي بين أصحاب الحق واللصوص المجرمين سارقي الأرض سواء آمنوا بالصهيونية أم لم يؤمنوا بها، فقضيتنا ليست في عنصرية الصهيونية بل في الاحتلال اليهودي لفلسطين وليس في أن (إسرائيل) كيانٌ وظيفيٌّ أم لا، فهذه ليست ضمن قاموسنا ولا نسلم لشذاذ الأفاق بحقنا في بلادنا، والحل هو خروجهم منها وتحريرها من دنسهم بكل بساطة.

وبعد أن يثبت مثقفو الاستعمار سمة الكيانية الوظيفية لجميع الدول العربية، عادوا واستدركوا وبالنص أن

"(إسرائيل) بفاعليتها استطاعت تجاوز مربع الوظيفية (مربع البقاء) إلى حدود التأثير (اشتقاق فاعليتها من ذاتها) نحو التحول الفعلي إلى دولة"، وبناءً عليه يصبح تحطيم الكيانات الوظيفية حالة مقتصرة على الدول العربية فقط من قبل (الشعوب) العربية نحو خلق الدولة الفعلية، وهو ما يقصدونه من "الربيع العربي" والذي لم يرتق إلى مستوى الطموح، فعلى ما يبدو أن المأمول من "الربيع العربي" كان يتجاوز حالة الفوضى الخلاقة إلى التقنيت والتشظي اللامتاهي فيصبح كيان العدو الصهيوني دولة كاملة الدسم في بحر من الشظايا المتصارعة.

ومن منطلق قومي لا ننكر وجود الدول الوظيفية في واقعنا العربي، والتي أنجزتها حالة التجزئة الاستعمارية من قبل الأوروبيين ومن قبلهم العثمانيين، إلى أن ورثت الولايات المتحدة الأمريكية هذا الدور، لكن ما ليس حقيقياً هو المزيد من التقنيت في جغرافيا وديموغرافيا العروبة جرياً خلف حلول تدعي "العلمية" وتدعي التأسيس الماركسي لها، وذلك بإسقاط النزعة القومية حفاظاً على مشاعر الغزاة اليهود و اختراع حلول تلفيقية نابعة أساساً من تحليل ملفق للواقع العربي ولحقيقة الصراع في ربوع الوطن العربي، وفي مقدمة عناوين هذا الصراع القضية الفلسطينية، فوجود الكيانات الوظيفية المصطنعة بفعل التجزئة عبر سلخ دول أو كيانات عن انتمائها الطبيعي لا تزول بهدم المعبد وتشظي تلك الكيانات من أجل أن يتقرر المصير باختيار أهل تلك الكيانات الاندماج ضمن بوتقة لا قومية، وإنما تستند إلى بعد إنساني وطبقي باعتبار أن تلك الشعوب تشكل حالة طبقية واحدة نابعة من حاجاتها ونابعة من رغبتها بإقامة دولتها على حساب الكيانات الوظيفية التي تقف فيها الأنظمة الوظيفية حجر عثرة ومعوفاً لتطورها بما تشكله الأنظمة الوظيفية من أداة للرأسمالية التي تنتشد فيها الشعوب التحرر من هيمنتها ومن ضمنها حتماً اليهود الذين يواجهون غطرسة الحركة الصهيونية في فلسطين! إن مثل هذا الحل الأخرق يتجاوز البعد الطبقي لحل الصراع إن قبلنا به أساساً، لأنه يصنف العرب الفلسطينيين وعموم العرب بأنهم طبقة مستغلة ومضطهدة من قبل كيانات وظيفية تمثلها أنظمة قمعية تعمل لخدمة الاستعمار والرأسمالية، ويضع اليهود في فلسطين ضمن ذات التصنيف الطبقي المستغل والمضطهد من قبل الحركة الصهيونية، ويتم التغافل عن حقيقة أن اليهود في فلسطين لا يمثلون طبقة حقيقية طبيعية متكونة ضمن سياق طبيعي، وهذا بالفرض الساقط أنهم مستغلون ومضطهدون، فيما الحقيقة أنهم تجاوزوا حالة الاستغلال والاضطهاد للشعب العربي الفلسطيني إلى حالة اقتلاعه من أرضه وتهجيرته وارتكاب الجرائم بحق العرب جميعاً، وجرائمهم شاهدة على ذلك، وأكذوبة التمييز بين اليهودي والصهيوني التي يتبناها البعض إنما هي وسيلة لتجميل لجرائم الوجود اليهودي في فلسطين، ولا يختلف اليهودي عن الصهيوني في فلسطين بالذات في شيء، فهما وجهان لعملة واحدة.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

الحل الذي يقتضي العدالة وإحقاق الحق هو تحرير فلسطين بالكامل من الوجود اليهودي فيها. أما مواجهة الكيانات الوظيفية وحلها فينبع من واقعنا القومي وذلك أن الأنظمة الوظيفية بما تمثله من أداة للرأسمالية تقتضي التخلص منها لحساب دولة الوحدة لأنها تمثل بحالتها هذه عدواناً على وحدة الأمة العربية، ولا تنوّه في التفاصيل بهذا الخصوص، فالأقطار ذات الطابع المركزي تمثل دولا مرجعية تلحق بها الدول الوظيفية بأنظمتها، فلا يصح أن تستخدم هذه الذريعة لتدمير البلاد العربية، ولا يصح أن نساوي الدول التي أنشئت في دهاليز وزارة المستعمرات البريطانية وحليفاتها الفرنسية بالوجود التاريخي للمراكز في العراق والشام والجزائر واليمن والجزيرة العربية والجزائر، لهذا فإن التعامل مع هذه الحالة، وفي سبيل القضاء عليها بسبب دورها الوظيفي، يندرج تحت باب الضم والتوحيد لتلك الأقطار مع المراكز التاريخية في الجغرافيا العربية وضمن مشروع قومي وحدوي، لا في إطار البحث عن "الحلول الطبقيّة"، فالوجود القومي والمصلحة القومية العليا يتجاوزان المفهوم الطبقي بصورته المطروحة، وإذا كان من بعد طبقي في إدارة تفاصيل الصراع ضد الرأسمالية فإنما يكون في إطار الشعاع القومي العربي وتحت مظلته.

كرونولوجيا مفهوم وحدة الأمة العربية المعاصر: بين تسييس الوعي القومي العربي وديناميكية السياق السياسي

إبراهيم حرشاي

عرف مفهوم وحدة الأمة العربية تحولاً ملحوظاً في العقود الأخيرة للإمبراطورية العثمانية والفترة التي تلتها، علماً أن فكرة الأمة العربية كانت شديدة الارتباط بعصر النهضة ومتأثرة بالتوجه الأيديولوجي الليبرالي لرواد القومية الأوائل، إلا أن الحس القومي العربي والوعي بالذات يعتبر ظاهرة أصيلة، إذ لم يكن هذا الحس ظاهرة من ظواهر الحداثة كمعظم الهيئات القومية الأوروبية بالقرن التاسع عشر بل كان جوهر الوجود العربي قبل الرسالة المحمدية، وتجلي ذلك سياسياً وأدبياً بالملاحم والقصائد التي خلّدت ذلك العصر. وفي المرحلة المعاصرة، وتحديدًا خلال الفترة العثمانية المتأخرة، ظهرت أول خطوة لبورجوازية القومية المعاصرة مع وجود مهادت متنوعة لها، أبرزها التمردات العربية ضد الحكم العثماني التي كان الأمير فخر الدين المعني الثاني بالقرن السابع عشر خير مثال عليها. إلى جانب هذه التجربة، ظهر التيار الوهابي بالجزيرة العربية كحركة أصولية مناهضة للانحراف الديني بالدولة العثمانية، مناشدة عبر بعض قادتها بضرورة تربع عربي على عرش الخلافة. وفي صلة قوية بهذه الأحداث المناهضة للسيطرة العثمانية يمكن إضافة تجربة محمد علي باشا الودودية مع سيطرته على أقاليم عربية شاسعة وتعبير ابنه إبراهيم عن بوصلته القومية العربية كذروة أولى للانفراج العربي المعاصر نحو التحديث والوحدة والاستقلال¹.

بدأت المحاولات الجديّة للتعبير عن وعي قومي عربي كطرح أيديولوجي ومشروع سياسي حداثي مع النهضة الثقافية العربية، واتخذت هذه النهضة صفة جمعوية نتيجة لتكاثر الجمعيات الإحيائية بمنتصف القرن التاسع عشر، وكان من أبرز هذه الجمعيات جمعية «الأدب والعلوم» التي أسسها اليازجي والبستاني في بيروت. ويعتبر أديب إسحاق أول من طرح فكرة القومية العربية بصيغة معاصرة انطلاقاً من قراءة نقدية للمجتمع المشرقي في ظل الجمود الذي اتصف به إبان الحكم العثماني مقارنة بالوثبات النوعية بالغرب نتيجة إشعاع قيم الثورة الفرنسية والصناعية. وسرعان ما أدرك إسحاق مجموعة التحديات أمام الفكرة الودودية داخل السياق العثماني الذي كانت تعج فيه التناقضات الثقافية والعرقية والدينية، ما جعله يروج لفكرة «اتحاد العرب». ومن المعروف أن إسحاق استلهم طريقة صياغة فكرته القومية العربية من المرجعية الليبرالية الفرنسية، حيث أنه عالج الفكرة بربطها ارتباطاً كلياً بالعلمانية، أي بمعنى أدق أنه انتزعها من الرابطة الدينية بين أبناء الأمة الواحدة. وأيضاً، يعرف الأمة بمضمون سياسي لا عرقي أسوة بالمذهب القومي الفرنسي بقوله إنها «المتجنسة جنساً واحداً وخاضعة لقانون واحد»، موضحاً ذلك بأن اتفاق الجماعة يكون على أساس موالاته جنسية معينة بعيداً عن الانتماء العرقي أو اللغوي. وبرغم دعواته لتهميش الانتماء المذهبي والعرقي لصالح الانتماء القومي، ظل إسحاق متمسكاً ضمناً بالرابطة العثمانية، حيث يرجح أنه كان متأثراً جداً بأفكار جمال الدين الأفغاني ورواد الإسلام السياسي الليبرالي في تلك الحقبة، لذا نعث في خطاب إسحاق على مفاهيم مثل «الشرقي» أو «المشرقي» بدلاً من العربي ما يوحي أن ما يشير له لا ينطبق كلياً على العنصر العربي، بل يشمل كذلك الشرائح القومية المنضوية تحت السقف العثماني.

1. عبر إبراهيم باشا عن بوصلته القومية بأقوال ومقتطفات عديدة من بينها: إن جيوشي لن تقف إلا حيث ينتهي الكلام بالعربية



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد



إنَّ جوهر فكر إسحاق القومي يكمن في دعوته لإنشاء تنظيم قومي يتجاوز الإطار الجمعي المحلي، زيادة على ذلك تأكده على ضرورة عقد مؤتمر لقيادة الأمة "يتذكرون فيه ويتحاورون" بغرض أن "تعود للعرب الضالة التي ينشدون، والحقوق التي يطلبون". والحقيقة أن أول منظمة سياسية عارضت الحكم العثماني هي "جمعية بيروت السرية" التي تأسست سنة 1875 عن طريق شخصيات لامعة كإبراهيم اليازجي، إلا أن البرنامج السياسي لهذا التنظيم اقتصر بعده الوحدوي على دمج سورية مع جبل لبنان. كما ظهرت في نفس الحقبة، أي بسنة 1876، "منظمة" في مصر باسم "الحزب الوطني" بقيادة محمود سامي البارودي تدعو إلى دولة عربية مستقلة وموحدة تضم مصر وسورية والحجاز.

ويلاحظ في كلتا الحالتين اقتصار الاهتمام على المشرق العربي، بعيداً عن أي طرح يحتوي الأقطار المغربية بالخطاب القومي العربي. وفي المقابل، انطلق أول مشروع وحدوي في المغرب العربي في أوساط حركة "تونس الفتاة" مع إطلاق أحد أبرز زعمائها، علي باش حانية، دعوة لتوحيد ميدان الكفاح، كما أسس أخوه في ألمانيا "اللجنة التونسية-الجزائرية"، وتواصل مع الوطنيين المغاربة، إلا أن البوصلة ظلت على

غرار المشرق العربي داخل النطاق الإقليمي، سواء بهذه التجربة أم بتجربتي "جمعية شمال إفريقيا" لمصالي الحاج و"جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين" التي تميّزت عن غيرها بتهيئة جيل سيقود لاحقاً معركة الاستقلال وبناء الدولة الوطنية بالأقطار المغربية الثلاثة. غير أن الفكرة القومية العربية بالمغرب العربي تبنيتها أطراف وأحزاب عديدة كمبدأ سياسي، بل سادت في الخطاب السياسي من أقصى اليسار إلى التيارات المحافظة والليبرالية، علماً أنّ "جمعية العلماء المسلمين بالجزائر" كانت من أوائل التنظيمات التي روجت لفكرة الوحدة العربية في الأقطار المغربية. ولا ينم ظهور التوجه القومي العربي بالأقطار المغربية كرد فعل على حدة الأوضاع والتناقضات المحلية فحسب، بل كانت الساحة الوطنية المغربية تعج بالفكر النهضوي المشرقي خاصة عبر العلاقة التي نسجها الأمير شكيب أرسلان مع نخب مغربية ونقله للخطاب العروبي إلى تلك الأوساط المؤسسة لمسيرة الاستقلال.

وبالعودة إلى الرعيل الأول للليقطة القومية العربية في بلاد الشام، يتلمس القارئ أن النداء القومي الوحدوي لهذه الطليعة كان ممتزجاً بالوطنية السورية ومركزيتها الحضارية، ويتجلى هذا الأمر في المنشورات والإصدارات التي كانت تعبر عن هذا التوجه كمجلة "الجنان" لبطرس البستاني والتي كان شعارها "حب الأوطان من الإيمان". وتزداد هذه الرؤية الشامية للقومية العربية وضوحاً بعدما دعا يوسف بك كرم لترشيح الأمير عبد القادر الجزائري لزعامة دولة عربية كونفدرالية من منطلق علماني بالجزء الآسيوي للوطن العربي. ويرجع ترشيح الأمير عبد القادر الجزائري لقيادة دولة عربية وحدوية بالمشرق إلى دوره المفصلي في إخماد الفتنة الطائفية التي شهدتها بلاد الشام سنة 1860، حيث استخدم مكانته الروحية والسياسية لدرء التجيش الطائفي، وقام بتوظيف قيم التسامح والعفة في مراسلاته مع شيوخ الطوائف، فمثلاً أشار الأمير عبد القادر في رسالته إلى شيوخ وأعيان الطائفة الدرزية إلى الانتماء القومي بتأكيد على الرابط اللغوي ووحدة الأرض. ومع اقتراب دائرة الفتنة إلى حي باب توما المسيحي بدمشق بتواطؤ صارخ للسلطات العثمانية، اضطر الأمير عبد القادر أن يحث مغاربة دمشق على حماية الحي ورد المهاجمين ودعوتهم إلى الاحتكام إلى العقل.

وبعد عبور سحابة الفتنة والاقترال الطائفي التي كادت تؤدي إلى مجزرة حقيقية بالحي المذكور، عزز الأمير مكانته بين أهالي دمشق وبلاد الشام عموماً. إلا أن المستعمر الفرنسي لم يغفل عن ذلك، فقد كان يرمي إلى إنشاء مشروع جيوسياسي ضخم لتأسيس مملكة عربية في الجزائر تحت إشراف نابليون الثالث، وحاول نسخ هذه الفكرة في المشرق عقب أحداث باب توما عبر تنصيب الأمير عبد القادر لخلق كيان سياسي يعزل بين الأناضول وقناة السويس.



وقبل معالجة التيار الوحدوي الذي أكد على عروبة الحيز الجغرافي الممتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، أي ما نطلق عليه حالياً الوطن العربي الكبير، الذي ارتبط ظهوره بتحوّلات جوهرية بالمنطقة تظهت بأحداث كتجزئة منطقة الهلال الخصيب بموجب اتفاقية سايكس-بيكو، وارتفاع وتيرة النشاط الصهيوني، وحل الدولة العثمانية، وتذبذب الحركات الوطنية الشامية بين اللامركزية العثمانية والاستقلال القومي العربي، والخيبة التي أصابت التيار القومي بعد «الثورة العربية الكبرى»، توجب المقاربة الكرونولوجية الوقوف عند بعض الأنماط الوحدوية المختصة للوطن العربي بالجنح الآسيوي.

نرى مثلاً التضييق الجغرافي لمفهوم الأمة عند إدمون رباط المنحدر من مدينة حلب، حيث استثنى بحجج جوفاء شمال إفريقيا برمتها من دائرة العروبة، مدعيّاً أن لمصر انتماءً خاصاً بها، أما الأقطار المغاربية فقام بإقصائها بحكم تواجدها في مرحلة ما قبل القومية معللاً ذلك بأن «الإسلام أو التضامن الديني لا يزال القوة الوحيدة التي تحرك جماهيره» على حد تعبيره. ولا يمكن بأي حال من الأحوال تقييم ما كتبه في كتابه «الوحدة السورية والمصير العربي» المنشور بالفرنسية سنة 1937 محاولة جديّة لوصف وضبط مفهوم الأمة العربية ووحدها على المستوى النظري، بل يمكن تصنيفه ضمن رواسب التنظير القومي بالعقود الأخيرة للدولة العثمانية، غير أن هذا الكتاب نُشر في مرحلة صعود خطاب قومي عربي جديد يتصف بمبادئ تقدمية ويدعو إلى وحدة عربية شاملة تتضمن الأقطار العربية بإفريقيا. واللافت أن رباط يتحدث عن مكونات الأمة العربية بمنطق وحدة الدم والأصل، مع أنه يرفض مفهوم «العرق العربي». وأوضح ذلك في نص عنوانه «الأصل المشترك للعرب» والذي استشهد في أحد فقراته بمستشرقين غربيين كـ«سبرينر» و«وينكلر» عن الأصل العربي «للساميين». وتعمّق رباط في توضيح نظرية «سبرينر» بالاستناد إلى مفهوم الموجات «السامية» التي تجعل من الجزيرة العربية مهد الحضارات العربية القديمة بموجب أربع هجرات توسعية، كان آخرها الفتح الإسلامي. ويتضح في فكر إدمون رباط موقفاً استعلائياً واضحاً قد يكون نابعاً من تأطيره الفرنسي وخلفيته الحضرية، فإزاء البداوة العربية يسجل موقفاً إقصائياً مستنداً إلى التخلف الاجتماعي والسياسي عند هذه الفئة العربية مقارنة ببلدان الشمال (بلاد الشام)، وينحو منحى المذهب العلماني المتطرف في وصف وظيفة الإسلام بالمشروع الوحدوي، فالإسلام يشكل عنده ماضي العرب وليس مستقبلهم بالرغم من المكانة الرئيسية التي يضع فيها الإسلام كأحد المكونات التاريخية للأمة العربية.

إن أكثر ما يثير انتباه قارئ نصوص إدمون رباط أنه كان من بين المثقفين القوميين الذين استثنوا لبنان من الاندماج العربي ودعوا للاحتفاظ بوضعه «الخاص»، فيما نرى أن كتاباته عن أصل العرب فتحت المجال لغيره لمعالجة العروبة القديمة، فنرى مثلاً مفكراً بحجم محمد عزة دروزة يقم، في كتابه «الوحدة العربية: مباحث في معالم الوطن العربي الكبير ومقومات وحدته والعقبات التي تقف في طريقها ومعالجتها والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها» (1943)، مسألة الوحدة العربية القديمة من مدخل اللغة، مركزاً على أن الوحدة اللغوية كانت موجودة منذ أقدم الأزمنة بسبب التشارك اللغوي بين اللهجات العربية القديمة.

وفي سياق متصل، نجد نجيب عازوري ممن اعترضوا مبكراً على انتماء الأقطار العربية بشمال إفريقيا إلى الوطن العربي موضحاً ذلك في كتابه «يقظة الأمة العربية» المنشور باللغة الفرنسية في باريس سنة 1905. فحسب عازوري لا يمكن إلحاق مصر والأقطار المغاربية بمشروع عربي وحدوي لأنهما «ليستا عربيتين بكل معنى الكلمة»، كما كانت له آراء سوربالية بدعوته العرب إلى التعاون مع بريطانيا وفرنسا بغرض تحقيق الاستقلال والوحدة، بل يذهب أبعد من ذلك ويبرر الاستعمار الفرنسي للجزائر بـ«ذريعة» تخليص المتوسط من قرصنة البرابرة التي فتكت بالتجارة الدولية ودمرتها. ولم يكن خفياً أن عازوري كان ماسونياً وتربطه علاقات مع شخصيات فرنسية نافذة، فكل هذا يصب نحو فرضية أنه كان عميلاً مباشراً لأجهزتها الاستعمارية. وبصرف النظر عما سبق تقتضي الموضوعية أن نشير إلى أنه في بداية القرن العشرين كان من بين المثقفين القوميين الأوائل، إن لم يكن الأول، الذين فطنوا للخطر الصهيوني واصفاً إياه بالخطر المصيري والوجودي على الأمة العربية. وكتب عن ذلك في مجلة «الاستقلال العربي» التي كانت تصدر باللغة الفرنسية ما يلي: «تبرز في هذه الآونة في تركيا الآسيوية ظاهرتان خطيرتان متناقضتان على وحدة طبيعتهما، هما يقظة الأمة العربية، وسعي اليهود الخفي لإعادة ملك «إسرائيل» القديم على نطاق واسع. إنه مكتوب لهاتين الحركتين أن تتصارعا باستمرار حتى تتغلب الواحدة على الأخرى». لم تكن تجربة عازوري ذات قيمة عالية ضمن الأوساط القومية كما يستنتج المؤرخ جورج أنطونيوس في كتابه «يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية». وعزا أنطونيوس أسباب هذا الإخفاق إلى ظهور هذه التجربة في عاصمة أجنبية وبلغه أجنبية، مما جعل نفوذها غير ذي معنى حقيقي.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد



أما في دمشق، فلا بد من الإشارة إلى تجربة صلاح الدين القاسمي الذي أسس مع رفاقه تجمعا قومياً باسم "جمعية النهضة العربية" التي كانت تعبيراً عن نهوض جيل جديد أزال عباءة الجيل القديم عن أكتافه وبدأ بتنقيح مفهوم القومية العربية من ناحية علاقتها باللغة والدين خارج إطار الخطاب الإصلاحية وضرورة أن تكون "الخلافة" عربية الذي تزعمه الكواكبي ومجايلوه. غير أن فكرة "الأمة العربية" لم تكن مستقرة عنده كما أوضح ناجي علوش في كتاب "الحركة القومية العربية في مائة عام"، مبيناً أنه استخدم مفهوم الأمة في أكثر من سياق، فمثلاً سجل للقاسمي استخدامه لمفاهيم "الأمة العربية السعيدة" و"أبناء الأمة العربية" و"الأمة العثمانية" و"المشرق" عند تناوله الشرق بشكل عام. ورصد القاسمي العلاقة بين الأمة واللغة عكس أديب إسحاق الذي لم يقم اللغة كعنصر من العناصر المكونة للأمة، في حين انتقد العصبية الدينية ووصفها كأحد معرقلات التحديث. ولم يكن القاسمي غافلاً عن أطماع الصهاينة في فلسطين، وله مقال بعنوان "خطر انصفران" نشره سنة 1911 ويقصد به خطر التسلسل الاستعماري الصهيوني من جهة وخطر الكوليرا من جهة أخرى.

ولعل ما أدى إلى تطور الخطاب والفكر القومي العربي من نطاقه الآسيوي إلى نطاقه الأشمل، هي ردة فعل المستعمر الأوروبي تجاه النهوض القومي المتزايد لدى العرب بالإضافة إلى الأحداث المشار إليها بفقرة سابقة. وقد يضاف إلى العوامل الحاسمة أيضاً تمكن الاستعمار الفرنسي من تجزئة المجرى بعد اتفاقية سايكس-بيكو عبر قومية الطوائف والمناطق خدمة لوعده بلفور ولهيمنتهم الاستعمارية في أن واحد. ففي تلك المرحلة تم إنشاء دولة "لبنان الكبير" في 31 آب سنة 1920، وإنشاء بلاد العلويين، ودولة حلب، ودولة دمشق بالسنة نفسها تحت إشراف المفوض السامي الفرنسي "الجنرال غورو". ويمكن اعتبار كل ذلك كمقدمة لنشوء مسار قومي عربي ذي أجندة مناهضة للاستعمار العربي ومخططاته التي طالت العراق كذلك، حيث مضى الاستعمار البريطاني قدماً في مشروع اقتطاع جنوب العراق وإحاقه بحكومة الهند البريطانية وسلم شماله إلى الشيخ لطيف الحفيد الذي أعلن نفسه ملكاً على منطقة كردستان، وذلك لإجهاض أي محاولة من طرف حلفائها الهاشميين لتوحيد سورية والعراق خارج خطوط سايكس-بيكو، وبدأت هذه السياسة البريطانية جلية في الوثيقة التي حملت عنوان: "مواقف حكومة صاحب الجلالة من قضية الوحدة العربية". فالمشروع الوحدوي العربي الذي يسعى إلى قيام اتحاد بين العراق وسورية يتناقض حسب الوثيقة مع المصالح البريطانية في وعد بلفور وفي منطقة الخليج العربي، كما أن الاتحاد بين القطرين العربيين سيفتح المجال لفرنسا لتوسيع نفوذها بالمشرق، ناهيك عن توقع بريطانيا معارضة عثمانية لقيام دولة عربية وحدوية على حدودها الجنوبية.

إن التصور القومي العربي سينجز تقدماً ملحوظاً فكرياً وميدانياً بعد تتابع المبادرات الحزبية والفعاليات القومية العربية التي كثيراً ما تزامنت مع انتفاضات شعبية كثورة العشرين في العراق والثورة السورية الكبرى وانتفاضة حماة التي استلهمها فوزي القاوقجي من ثورة الريف المغربي، هذه الثورات التي تركت بصمتها في التحولات التي شهدتها الحركات الوطنية على صعيد هويتها التنظيمية ومضمونها البرنامجي. فالأحزاب والجمعيات التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى كحزب الاستقلال العربي المؤسس في سورية سنة 1919، وجمعية "حراس الاستقلال" المؤسسة ببغداد بالسنة ذاتها لم تجتز في تصورهما للوحدة العربية الهلال الخصيب، وظلت متمسكة بوحدة المشرق العربي بشكل منسجم مع التوجهات الوحدوية التي سبقتها، كما ظلت هذه المبادرات متأثرة بحدث الثورة العربية الكبرى وميثاق دمشق المؤطر لمحتواها والمعبر عن التحالف بين الهاشميين والجمعيات العربية السرية.



العقد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

والحقيقة أن نموذج حزب الاستقلال كان من بين النماذج التي توسّعت تنظيمياً مع تشكيل فروع في العراق وسورية والقدس حيث رفع الحزب شعار الوحدة السورية ومكافحة الصهيونية.

لقد كان عقد "المؤتمر السوري العام" بدمشق سنة 1919 الذي مثل كل أقاليم سورية الكبرى وكل اتجاهات الحركة القومية الناشطة فيها من أهم الأحداث إزاء التحديات الجديدة المحدقة بالمشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى. فكان المؤتمر عبارة عن فرصة لتقريب الأفكار ووجهات النظر بين العائلة القومية في سورية الكبرى، واتخذت فيه قرارات مهمة حول وحدة بلاد الشام والتصدي للخطر الصهيوني، إلا أن مفهوم الوحدة العربية ظل مرة أخرى بالحقل الجغرافي الآسيوي. ويكتب ألبيرت حوراني في كتابه "الفكر العربي في عصر النهضة -1798-1939"، أن ما انطوى عليه برنامج المؤتمر السوري هو توحيد الأقاليم السورية، ثم إنشاء وحدة سورية- عراقية لتشبيك روابط مع دول عربية أخرى.

وبوسعنا تحديد نشأة التيار القومي العربي الموسع لمفهوم الأمة العربية والشامل لأقطار مصر والمغرب العربي مع النشاط الثقافي والفكري الذي بدأه ساطع الحصري بالعراق. وترجع مساهمته في إعادة الاعتبار لعروبة شمال إفريقيا في المعركة التي خاضها ضد التيار القومي المصري المتبني للطرح الفرعوني والمتوسطي، وأطلق فكرة إقليم-القاعدة سنة 1936 لإبراز ثقل مصر بالوطن العربي بالفقرة التالية: "لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة في إنهاض القومية العربية. لأنها تقع في مركز البلاد العربية، بين القسمين الإفريقي والآسيوي منها، كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التي انقسم إليها العالم العربي بحكم السياسة والظروف. وهذه الكتلة قد أخذت حظاً أوفر من الحضارة العالمية الحديثة، وقد أصبحت أهم مركز من مراكز الثقافة في البلاد العربية. وهي أغنى هذه البلاد بأجمعها. كما أنها أقدمها في تشكيلات الدولة العصرية وأقواها في الآداب وأرقاها في الفصاحة".

والواقع أن الدارس يتلمس كذلك عند الحصري محاولة حقيقية لوضع أركان نظرية متينة للقومية العربية. وكانت محركات الإنتاج النظري لدى الحصري تتمثل في دوره كمثقف يتمتع بمخزون منهجي ومعرفي متماسك، إذ وضع نصب أعينه التجارب القومية في بلغاريا واليونان وسويسرا وبلجيكا والولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين² إلى جانب التجارب التاريخية لهذه الأمم، وكانت المدرسة القومية الألمانية من أهم المدارس القومية التي استلهمها الحصري في تعريف مكونات الأمة باللغة والتاريخ. فالحصري ينطلق من هذه الخلفية التنظيرية لبناء نصوصه عن القومية العربية، فالأمة تقوم عنده على أساس موضوعي يكتمل في اللغة المشتركة، بينما ينظر إلى عامل التاريخ كمزود لشعور الأمة وذاكرتها. لقد استبعد الحصري الأصل الواحد أو الرابطة العرقية أو الدينية كمنابع مكونة للأمم حيث يقول أن "جميع الأمم التي نعرفها الآن قد تكوّنت من تداخل عشرات العروق والأجناس في مختلف أدوار التاريخ". بهذه المرجعية الحصرية -إذا صحّ التعبير- أخذ الفكر القومي العربي ومفهوم الوحدة العربية شكله الناضج، وانطبع العمل القومي بهذا الإطار ميدانياً ونظرياً بميولاته اليسارية والناصرية والبعثية والليبرالية.

وأخذت الحركة القومية إبان حقبة الثلاثينيات هذا البعد بتنظيمات ومبادرات في كل من سورية والعراق وفلسطين، إلا أن ما يثير الانتباه بهذا الجيل هي "جمعية الجوال" العراقية التي حددت أهدافها في وثيقة معروفة باسم "المنهج القومي العربي" الصادرة في 13 حزيران 1935. وتميّزت هذه الجمعية عن باقي الجمعيات التي سبقتها ببعدها الاشتراكي واهتمامها بالمسألة الاقتصادية والاجتماعية، ناهيك عن إعطاء العراق دوراً قيادياً لتحقيق الوحدة العربية تمجيداً لدور بلاد الرافدين الوحدوي بالعهد العباسي، واستناداً لإنجازات بروسيا وبييدمونت في توحيد ألمانيا وإيطاليا بالحديد والنار. وتطوّرت هذه الفكرة بعدما اندمجت جمعية الجوال في "نادي المثني بن حارثة الشيباني" وصعود عناصر وازنة فكرياً كقسطنطين زريق أو جذرية التوجه كسامي شوكة الذي دفع بدوره نحو إبراز الدور المركزي لمصر إلى جانب العراق تعزيزاً لقيادة معركة الوحدة. وفي ظل محاولات الاقتراء التي تتعرض لها هذه التجربة العراقية بربطها بالنازية ينبغي لفت الانتباه للموقف الواضح للنادي الداعي إلى مقاومة "الحركات الشيوعية والصهيونية والنازية والفاشستية وغيرها من الحركات المضرة بكياننا وتقدمنا".

إن ما نستنتجه بعد سرد هذه المحطات المفصلية لنضوج فكرة الوحدة القومية العربية المعاصرة، هو وجه التشابه بين الأطراف المعادية للوحدة العربية آنذاك وبالوقت الراهن. فمرحلة الثلاثينيات كانت تحتوي تقريباً نفس العوامل المعادية للوحدة العربية حالياً التي تشمل كل من: الإمبريالية الغربية والصهيونية، والفكرية الانعزالية، والتيارات الدينية المتطرفة، بالإضافة إلى مشروع الفرعونية بمصر والفينيقية بلبنان والسياسة البربرية بالمغرب العربي.

2. انظر كتبه التالية:- محاضرات في نشوء الفكرة القومية، وما هي القومية؟.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

المراجع:

- فواز طرابلسي: تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الخامسة، بيروت، 2018.
- مروان بحيري (إعداد)، الحياة الفكرية في المشرق العربي 1890-1939، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1983.
- ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، نوفل، بيروت، 2013.
- الدكتور هادي حسن عليوي، الإتجاهات الوحدوية في الفكر القومي العربي المشرقي 1918-1952، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000.
- جورج أنطونيوس: يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.
- ناجي علوش (إشراف وتحرير)، الحركة العربية القومية في مائة عام 1875-1982، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1997.
- ماجد فخري، الحركات الفكرية ورؤاها اللبنانيون في عصر النهضة 1800-1922، دار النهار للنشر، بيروت 1992.
- السيد ياسين (المشرف على الدراسة)، تحليل مضمون الفكر القومي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991.
- L.C. Biegel, De Arabische Liga, C.P.J. Van Der Peet, Amsterdam, 1954
- L.C. Biegel, Minderheden in het Midden-Oosten: hun betekenis als politieke factor in de Arabische wereld, Van Lo-ghum Slaterus, Deventer, 1972

المصلحة الاقتصادية في الوحدة العربية كمسألة رياضية

إبراهيم علوش

درجت الأدبيات القومية الوحدوية الكلاسيكية على البرهنة على المصلحة الاقتصادية في الوحدة العربية بالالتكافؤ على مقولة التكامل الاقتصادي العربي، أي تكامل الموارد الاقتصادية المتنوعة المشتتة بين الأقطار العربية المختلفة، فهذا القطر يمتلك وفرة من الأراضي الزراعية الخصبة، وذلك القطر يمتلك فائضاً من الأيدي العاملة، والثالث يمتلك كثيراً من رؤوس الأموال، والرابع لديه نسبة عالية من البطالة بين أصحاب الخبرات والشهادات العليا، والخامس تتدفق فيه مياه الأنهار (أو كانت، قبل السدود التركية والإثيوبية)، والسادس تكثرت فيه الخامات في باطن الأرض، إلخ... وهذه الموارد لا بد لها من أن تجتمع في دولة الوحدة لكي يعم خيرها على مواطني الأمة العربية، ولا يعم خيرها إن بقيت مكونات متناثرة، لتظل مهدورة أو منهوبة أو هباءً منثوراً ما بقي كلٌّ منها أسير حدوده القطرية، كفرص مفوتة أو كغيم بلا مطر.

ولا غبار نظرياً على إسناد الحاجة الملحة للوحدة اقتصادياً إلى مقولة تكامل الموارد العربية، سوى أن الواقع هو أن بقاء مثل ذلك التكامل في حالة كمون يتركنا وجهاً لوجه أمام تماثل البنى الاقتصادية القطرية العربية الراهنة، وهو ما يترك التجارة البينية العربية عند أدنى مستوى ممكن (حوالي 11% من إجمالي الصادرات السلعية العربية عام 2019، أما صادرات الخدمات البينية العربية، كالسياحة وغيرها، فبلغت 3.7% في العام ذاته). ومع ذلك، فإن مقولة التكامل الاقتصادي العربي تبقى نموذجاً لنمط من التفكير يجعل من الوحدة العربية مثلاً أعلى، أعلى من اللزوم ربما، كنجم تلتألأ في السماء، تبقى بعيدة المنال، حتى تتحقق الوحدة، تماماً مثل الفوائد الأخرى، غير الاقتصادية، للوحدة العربية.

نقول إن الطرح الكلاسيكي حول الفوائد الاقتصادية للوحدة العربية صحيح في المحصلة، فيما لو تحققت الوحدة، تماماً كما يعتقد المؤمنون جماليات الجنة الموعودة، وهذا قد يكون كافياً لدى البعض، المؤمن مسبقاً والثابت على إيمانه رغم كل شيء، ولكنه طرح بات يفتقد اليوم للجاذبية، مثل الطرح القومي الكلاسيكي عموماً، لبعده عن المنهج الذي يحكم روح العصر، المنهج العلمي التحليلي القادر على تبيان المصلحة العليا في الوحدة العربية هنا والآن، في زمن الردة عن المشروع القومي، أي المنهج الذي يعمل على تبيان المصلحة في الوحدة العربية بمقاييس عصرنا حتى للعقل النفعي المتشكك.

ما سيأتي إذاً ليس على الإطلاق نقضاً لمقولة التكامل الاقتصادي العربي، التي تبقى صحيحة الأساس اقتصادياً وسليمة البوصلة مبدئياً، إنما اجتهاد في بناء رؤية جديدة للمصلحة الاقتصادية في الوحدة العربية على أرضية علمية رياضية، حتى لو افترضنا جديلاً أن مقولة التكامل الاقتصادي العربي لم تكن صحيحة أصلاً، أي لو افترضنا جديلاً أن كل قطر عربي يمتلك كمية كبيرة من كل مورد اقتصادي متوفر في أي قطر عربي آخر، لنصل إلى نتيجة مفادها أن التنمية والتقدم الاقتصادي لا يتحققان في ظل التجزئة القطرية، أي أن الطريق القطري إلى التنمية والتطور مغلق ومأزوم، فلا خيار إذاً إلا خيار الوحدة للخروج مما نحن عليه من أزمت اقتصادية ومعيشية معاصرة.



العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

ولبناء مثل هذه الرؤية منهجياً لا بد من البدء بما يسميه الاقتصاديون والمهندسون الصناعيون بـ"دالة الإنتاج".
دالة الإنتاج كعلاقة بين المدخلات والمخرجات:

تخضع أي عملية إنتاجية لعلاقة ضرورية بين المدخلات والمخرجات. مثلاً، كم برتقالة (مدخلات) نحتاج للحصول على كوب من عصير البرتقال الطازج (مخرجات)؟ لنفرض أن العلاقة بالنسبة لنوع معين من البرتقال هي: $y = x/4$ ، أي نحتاج لأربع برتقالات، أو أربع وحدات من المدخل x للحصول على وحدة واحدة من المخرج y ، أي ربع لتر من عصير البرتقال مثلاً. فإذا أردنا 3 أكواب من عصير البرتقال مثلاً، أي $y = 3$ ، فإننا نحتاج إلى 12 برتقالة، أي $x = 12$.

إن مثل هذه العلاقة بين المدخلات والمخرجات تسمى في علم الاقتصاد دالة الإنتاج Production Function، وهي علاقة يمكن وصفها عامة في معادلة رياضية يختلف شكلها بحسب القطاع الإنتاجي أو الصناعة، وحتى بحسب الزمان والمكان أحياناً. فالشكل الرياضي لدالة إنتاج الخضار (بالأطنان مثلاً) سوف يختلف عن دالة إنتاج أمتار النسيج، ودالة إنتاج الفولاذ في القرن التاسع عشر سوف تختلف عنها في القرن الواحد والعشرين، ودالة إنتاج براءات الاختراع سوف تختلف عن دالة إنتاج لترات عصير البرتقال، ودالة إنتاج الخدمات السياحية تختلف عن دالة إنتاج الأفلام السينمائية، إلخ...

بالعودة للمثال التبسيطي أعلاه عن عصير البرتقال، علينا أن ننتبه إلى أن ذلك العصير لا ينتج طبيعياً من ثمرات البرتقال ذاتها، بل لا بد من قوة عمل (يدوية أو آلية) تنتجه، كما لا بد من عصارة (آلة بلاستيكية أو ميكانيكية) في هذه العملية، وإذا كانت العملية ميكانيكية، فلا بد من مصدر للطاقة يحركها، وهو ما يصبح مدخلاً إنتاجياً أيضاً. وإذا كنا نتحدث عن عملية صناعية، كما في مصنع للعصائر مثلاً، فإن الآلات المستخدمة في هذه العملية اسمها "رأس المال المادي"، أي رأس المال المستخدم في العملية الإنتاجية مباشرة (تميزاً له عن الأنواع الأخرى من رأس المال، وهي ليست موضوعنا هنا).

يمكن إذاً أن نصف العملية الإنتاجية لأي سلعة أو خدمة بناءً على دالة إنتاجية عامة لا بد لها من استخدام عدد من ساعات العمل، ووحدات رأس المال، ووحدات المواد الخام، وغيرها من المدخلات، للحصول على كمية محددة من وحدات المخرجات. وهذه الدالة العامة يتم التعبير عنها هكذا:

$$Q = f(K, L, M, \dots)$$

حيث Q هي كمية أو عدد وحدات المخرجات quantity، و K هو الرمز المعتمد أكاديمياً لتمثيل رأس المال cap-ital (لأن حرف الـ C "محمورٌ" عُرفاً لمصطلح استهلاك consumption)، و L هو عدد العمال أو ساعات العمل Labor، و M تعبر عن المواد الخام Material. وما سبق هي متغيرات دالة الإنتاج التي يمكن أن تأخذ أشكالاً رياضية مختلفة، بحسب القطاع الإنتاجي والزمان والمكان، حيث Q هي المتغير التابع الذي تحده المتغيرات المستقلة مثل K, L, M . وإذا أردنا المزيد من التفصيل، يمكن أن نقول إن كل واحد من تلك المتغيرات المستقلة يمكن تفصيله في بعض الحالات إلى عدد من التصنيفات categories، حتى ضمن دالة الإنتاج ذاتها، فثمة أنواع شتى من الآلات والمعدات، وأنواع مختلفة من العمل، ومن المواد الخام، ربما تكون ضرورية للعملية الإنتاجية الواحدة، ولكن الدخول في هذه التفاصيل ليس ضرورياً الآن للوصول إلى الاستنتاج الذي نريد الوصول إليه.

مسألة اقتصاديات الحجم:

سبقت الإشارة إلى أن دوال الإنتاج تختلف فيما بينها، ويمكن تصور مئات الأشكال الرياضية لها فعلياً، غير أن من أكثر أشكال دوال الإنتاج شيوعاً في التدريس والأبحاث العلمية هي تلك المعروفة باسم دالة إنتاج "كوب-دوغلاس" Cobb-Douglas. ويتمثل الشكل الأساسي لتلك الدالة هكذا: $Q = A K^\alpha L^\beta$ ، حيث Q هي عدد الوحدات المنتجة من سلعة أو خدمة ما، من لترات عصير البرتقال مثلاً، أو من الخدمات الطبية أو المصرفية، أو من أمتار الأقمشة أو أطنان الفولاذ أو براميل النفط، و K و L هما رأس المال والعمل، بالتتالي، كما بينا أعلاه، وقد تم تجاهل M والمدخلات الأخرى حالياً لتبسيط المعادلة، ويمكن بسهولة أن نعيد إضافتها ولن يؤثر ذلك على الاستنتاجات.



العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

أما A فهي رقم قياسي لمجموعة العوامل المؤسسية، الثقافية والقانونية والتقنية، المحيطة بالعملية الإنتاجية، مثل ثقافة العمل وحكم القانون ودرجة تطور التكنولوجيا وغيرها، و A هنا تضم مجموعة من العوامل النوعية والكمية، ولكنها تعتبر رقماً ثابتاً لا متغيراً في معظم دوال الإنتاج، مثلاً إذا كانت A تساوي 2، فهذا يضاعف Q بالنسبة لأي مصفوفة من قيم المدخلات، وإذا كانت A تساوي 0.5 مثلاً بسبب انتشار الفساد وسوء الإدارة والتقاعد أو التقادم التكنولوجي، فإن ذلك يخسف Q إلى النصف بالنسبة لمصفوفة قيم المدخلات ذاتها. ولكن بشكل عام، يتم التعامل مع A بأنها قيمة ثابتة نسبياً على المدى القصير والمتوسط، وهناك دراسات تتعامل معها كقيمة متغيرة، وهي ليست القاعدة، ولن نتوقف عند هذه النقطة حالياً.

يتبقى في المعادلة أس كل من المتغيرين K و L ، أي α و β ، وهما حرفان إغريقيان يلفظان (ألفا) و(بيتا)، من الأبجدية العربية الكنعانية القديمة التي انتقلت للإغريق، وهما ثابتان، لا متغيرات، قد نعرفهما وقد لا نعرفهما، ولكنهما قيمتان رقميتان محددتان ثابتتان، يجب أن تكونا صفراً أو أكثر، مثلاً ربما تكون α مساوية لـ 0.4 و β مساوية لـ 0.6، أو أي قيمة رقمية ثابتة غير سالبة أخرى، وسنضيف المزيد حولهما تالياً، أما استخداماتهما الاقتصادية فعديدة، ولن ندخل في تفصيلها هنا، سوى أن ما يهمنا منها هو خاصية محددة في دالة كوب-دو غلاس هي خاصية التجانس $homogeneity$ التي تجعل من قيم α و β أساساً ضرورياً لفهم مسألة اقتصاديات الحجم.

فما هي خاصية التجانس؟ لنفرض أننا ضربنا كلاً من المتغيرات المستقلة K و L في دالة كوب-دو غلاس أعلاه بعدد ثابت مثل m ، حيث $Q = f(K, L) = A K^\alpha L^\beta$ ، كما سبق معنا أعلاه:

$$f(mK, mL) = A (mK)^\alpha (mL)^\beta = A m^\alpha K^\alpha m^\beta L^\beta = m^{\alpha+\beta} A K^\alpha L^\beta = m^{\alpha+\beta} Q$$

(خاصية التجانس إذاً هي إمكانية استخلاص أو استخراج المعامل m كاملاً من المعادلة إذا ضربنا كلاً من المتغيرات المستقلة به على حدة)

ما سبق سيكون أساس الرؤية العلمية للمصلحة الاقتصادية في الوحدة العربية، فصبراً...

من صفات الأس $\alpha+\beta$ فيما جاء أعلاه هو ما يلي:

- 1) إذا كان مجموع $\alpha+\beta > 1$ ، أي إذا كان المجموع أكبر من واحد، فإن عائدات الإنتاج متزايدة، أي إذا زدنا المدخلات واحداً بالمتة، فإن المخرجات تزداد أكثر من واحد في المتة، وهذا ما نسميه اقتصاديات الحجم.
- 2) إذا كان مجموع $\alpha+\beta = 1$ ، أي إذا كان المجموع مساوياً لواحد صحيح، فإن عائدات الإنتاج ثابتة، أي إذا زدنا المدخلات واحداً بالمتة، فإن المخرجات تزداد واحداً في المتة.
- 3) إذا كان مجموع $\alpha+\beta < 1$ ، أي إذا كان المجموع أقل من واحد، فإن عائدات الإنتاج تزداد بصورة متناقصة، أي إذا زدنا المدخلات واحداً بالمتة، فإن المخرجات تزداد، ولكن أقل من واحد في المتة.

ولعل بعض الأمثلة الرقمية توضح الفكرة بطريقة أفضل:

1) لنفرض أن دالة الإنتاج هي: $Q = A K^1 L^1$ ، أي لنفرض جديلاً أن $\alpha=\beta=1$ ، ولنفرض أن $m=1.1$ ، أي لنفرض أننا زدنا كل المدخلات المتغيرة، أي العمل ورأس المال بنسبة 10%، أي أن 0.1 هي زيادة عشرة بالمتة، ولو كانت $m=1$ ، لما تغير شيء. الآن، مع هذه الزيادة بنسبة عشرة بالمتة، نحصل على ما يلي: $f(mK, mL) = A (mK)^1 (mL)^1 = Q_2 = 1.21 Q_1 = Q_2 = 1.21 Q_1$ ، وهذا يعني في هذه الحالة (عندما تكون $\alpha+\beta > 1$) أن زيادة كل من رأس المال والعمل بنسبة عشرة بالمتة سوف يزيد الإنتاج بنسبة 21 بالمتة.

2) لنفرض الآن أن دالة الإنتاج هي: $Q = A K^{0.5} L^{0.5}$ ، أي لنفرض جديلاً أن $\alpha=\beta=0.5$ ، ولنفرض أن $m=1.1$ ، أي لنفرض أننا زدنا كل المدخلات المتغيرة، أي العمل ورأس المال بنسبة 10%. الآن، مع هذه الزيادة بنسبة عشرة بالمتة، نحصل على ما يلي: $f(mK, mL) = A (mK)^{0.5} (mL)^{0.5} = m^1 Q_1 = (1.1)^1 Q_1 = Q_2 = 1.1 Q_1$ ، وهذا يعني في هذه الحالة (عندما تكون $\alpha+\beta = 1$) أن زيادة كل من رأس المال والعمل بنسبة عشرة بالمتة سوف يزيد الإنتاج بنسبة 10 بالمتة بالضبط.



(3) لنفرض الآن أن دالة الإنتاج هي: $Q_1 = A K^{0.2} L^{0.4}$ ، أي لنفرض جديلاً أن $\alpha = 0.2$ ، وأن $\beta = 0.4$ ، ولنفرض أن $m = 1.1$ ، أي لنفرض أننا زدنا كل المدخلات المتغيرة، أي العمل ورأس المال بنسبة 10%. الآن، مع هذه الزيادة بنسبة عشرة بالمئة، نحصل على ما يلي: $f(mK, mL) = A (mK)^{0.2} (mL)^{0.4} = m^{0.6} Q_1 = (1.1)^{0.6} Q_1 = Q_2 = 1.0588 Q_1$ ، وهذا يعني في هذه الحالة (عندما تكون $\alpha + \beta < 1$) أن زيادة كل من رأس المال والعمل بنسبة عشرة بالمئة سوف يزيد الإنتاج، نعم، ولكن بنسبة أقل من 10 بالمئة، إذ سيزداد الإنتاج بنسبة تقل عن 6%.

(الآن نأتي إلى استنتاج مهم لمن لم يتابع التحليل الرياضي أعلاه): نرى مما سبق أن دوال الإنتاج تنقسم إلى ثلاثة أنواع من حيث اقتصاديات الحجم، فهناك دوال إنتاج تظهر عائدات تزداد بصورة متزايدة *increasing returns to scale*، وأخرى تظهر عائدات تزداد بصورة ثابتة *constant returns to scale*، وثالثة تظهر عائدات تزداد بصورة متناقصة *decreasing returns to scale*، عند زيادة المدخلات بالنسبة ذاتها في كل من الحالات الثلاث. وحتى نهيئ للعلاقة بين طبيعة هذه الدوال وبين الوحدة الاقتصادية العربية نضيف أن دوال الإنتاج ذات العائدات المتزايدة هي تلك التي تنسم بها الصناعات الثقيلة والتكنولوجية، مثل الاتصالات وصناعة الطائرات والأسلحة المتقدمة والفولاذ، وأن دوال الإنتاج ذات العائدات الثابتة هي من صفات الصناعات المتوسطة (مثل بعض أنواع مصانع الألبسة والمعلبات)، وأن دوال الإنتاج ذات العائدات المتناقصة هي من صفات الصناعات الخفيفة (المنشآت الصغيرة عموماً).

وليس بالضرورة أن تكون دالة الإنتاج من نوع كوب-دو غلاس لينطبق عليها القانون أعلاه في حالة وجود التجانس. لنأخذ مثلاً الدالة التالية، وهي ليست من فئة كوب-دو غلاس: $Q = K^2 + KL + L^2$ ، في مثل هذه الحالة فإن ضرب كل متغير مستقل بالمعامل m ، مهما كانت قيمته، يعني أن:

$$f(mK, mL) = (mK)^2 + (mK)(mL) + (mL)^2 = m^2Q$$

أي أن هذه الدالة الإنتاجية تخضع لقانون العائدات المتزايدة.

ليست كل دالة إنتاجية متجانسة بالمقابل، أي يمكن استخراج المعامل m منها بالتمام والكمال، كما في مثال الدالة التالية: $Q = K^3 + 2KL + L^3$ ، كما أن هناك دوال إنتاجية تنسم بتغير طبيعة عائدات الحجم عبر المراحل الإنتاجية المختلفة، فقد تبدأ متزايدة في بداية العملية الإنتاجية، لتصبح ثابتة، لتصبح متناقصة، أو بالعكس.

لكن الأمر المؤكد هو أن دوال إنتاج الصناعات الكبيرة والمتقدمة تخضع لقانون العائدات المتزايدة، أي لاقتصاديات الحجم *economies of scale*، ويعود ذلك لعدة عوامل مثل:

- (1) التخصص، وهي النقطة التي ركز عليها آدم سميث في "ثروة الأمم"، مما يتيح لكل عامل وآلة التركيز على مهمة واحدة فقط،

- (2) الحاجة لإنفاق مبالغ كبيرة جداً لتأسيس المشروع في بعض الحالات، كما في إنفاق شركات الأدوية مئات ملايين الدولارات على تسجيل براءة اختراع دواء جديد، وهو ما يخلق اقتصاديات حجم كلما ازداد حجم التسويق،
- (3) العوائد الخارجية للحجم، مثلاً، وسيلة تواصل اجتماعي فيها ألف مشترك ليست مثل وسيلة تواصل اجتماعي فيها مليار مشترك، من حيث جدوى نشر الإعلانات فيها، أو من حيث قدرتها التفاوضية مع من تشتري منهم مدخلاتها، ومن حيث جدوى الاشتراك فيها (الطلب الاستهلاكي من الزبائن)، والشركة الأكبر حجماً تحصل على القروض من البنوك بفوائد أقل عموماً لأنها أقل عرضة للتعثر، كما أن الإعلان المدفوع ذاته الذي تنتشره تتوزع تكلفته على عدد أكبر من الوحدات المنتجة، إلخ...

- (4) اقتصاديات النوع *economies of scope*، حيث إنتاج سلعة أو خدمة يجعل من إنتاج سلعة أو خدمة قريبة أو شبيهة أسهل منالاً أو أقل تكلفة، مثلاً شبكة توزيع مشروبات غازية إلى أماكن مختلفة جغرافياً من الأسهل عليها أن تحدث تعديلات في شاحنتها لتوزيع التشيس أيضاً، ومصنع الجلود قد يكون من الأسهل عليه أن يفتح خطاً جديداً لإنتاج الحقايب الجلدية من البدء من الصفر، وكذلك بالنسبة لتوزيع المنتج ذاته للائم أذواق المستهلكين المختلفين، إلخ...



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

بالإضافة إلى العديد من الأسباب الأخرى التي يمكن إيجادها في محركات البحث وكتب مبادئ الاقتصاد الجزئي... ولكن مسألة اقتصاديات الحجم لا تتوقف عند طبيعة دالة الإنتاج كمسألة محددة رياضياً، بل تؤدي إلى علاقة عكسية مع تكاليف الإنتاج، وعلاقة طردية مع القيمة المضافة المتزايدة للإنتاج الكبير، وبالتالي الإسهام في بدرجة أكبر في معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي، أي في مستوى المعيشة لعامة المواطنين، كما سنرى.

العلاقة بين اقتصاديات الحجم والتكلفة الوسطية والتنافسية:

التكلفة الوسطية Average Cost، المكناة اختصاراً بـ AC، تساوي التكلفة الكلية (TC) مقسومة على عدد الوحدات المنتجة Q (التي كنا نتحدث عن دالة إنتاجها أعلاه). والتكلفة الكلية هي بالطبع تكلفة المدخلات الإنتاجية كلها، أي كلفة الإنتاج بشكل عام، ومنها تكلفة العوامل التي تجاهلناها هنا، غير العمل ورأس المال، للتبسيط. وقانون التكلفة الوسطية هو:

$$AC = TC/Q$$

والتكلفة الوسطية هي تكلفة الوحدة الواحدة من المخرجات بالمتوسط، مثلاً، لو افترضنا أن كلفة الإنتاج الكلية لإنتاج 200 ألف سيارة من مصنع السيارات في عام واحد هي مليار دولار، تصبح تكلفة السيارة الواحدة 5000 دولار من باب المصنع، ومصانع السيارات تخضع لقانون العائدات المتزايدة (ولا نتحدث عن تجميع السيارات هنا).

الآن يمكن أن نضع جداول وأن نرسم منحنيات تُظهر تغير منحنى التكلفة الوسطية AC مع تزايد الإنتاج Q، بحسب طبيعة اقتصاديات الحجم:

(1) فإذا افترضنا أن عائدات الحجم متزايدة، أي أن زيادة المدخلات بنسبة 10% مثلاً يزيد الإنتاج أكثر من 10%، وإذا افترضنا خلال هذه التجربة ثبات أجور العمال وثبات السعر التاجيري لرأس المال (أي للآلات والمعدات والأبنية الصناعية)، فإن زيادة المدخلات عشرة بالمئة يزيد التكلفة عشرة بالمئة، ويزيد الإنتاج أكثر من عشرة بالمئة، أي أن النسبة TC/Q سوف يزداد فيها البسط عشرة بالمئة، وسوف يزداد فيها المقام أكثر من عشرة بالمئة، أي أن AC، أو التكلفة الوسطية للوحدة الواحدة من Q سوف تنخفض. وهذا يعني أن الرسم البياني لمنحنى الـ AC سيكون متناقصاً (الميل سالب) كلما ازداد الإنتاج.

(2) فإذا افترضنا أن عائدات الحجم ثابتة، أي أن زيادة المدخلات بنسبة 10% مثلاً يزيد الإنتاج بالضبط 10%، وإذا افترضنا خلال هذه التجربة ثبات أجور العمال وثبات السعر التاجيري لرأس المال، فإن زيادة المدخلات عشرة بالمئة يزيد التكلفة عشرة بالمئة، ويزيد الإنتاج كذلك عشرة بالمئة، أي أن النسبة TC/Q سوف يزداد فيها البسط عشرة بالمئة، وسوف يزداد فيها المقام عشرة بالمئة أيضاً، أي أن AC، أو التكلفة الوسطية للوحدة الواحدة من Q سوف تبقى ثابتة كما هي. وهذا يعني أن الرسم البياني لمنحنى الـ AC سيكون ثابتاً (خطاً أفقياً) كلما ازداد الإنتاج.

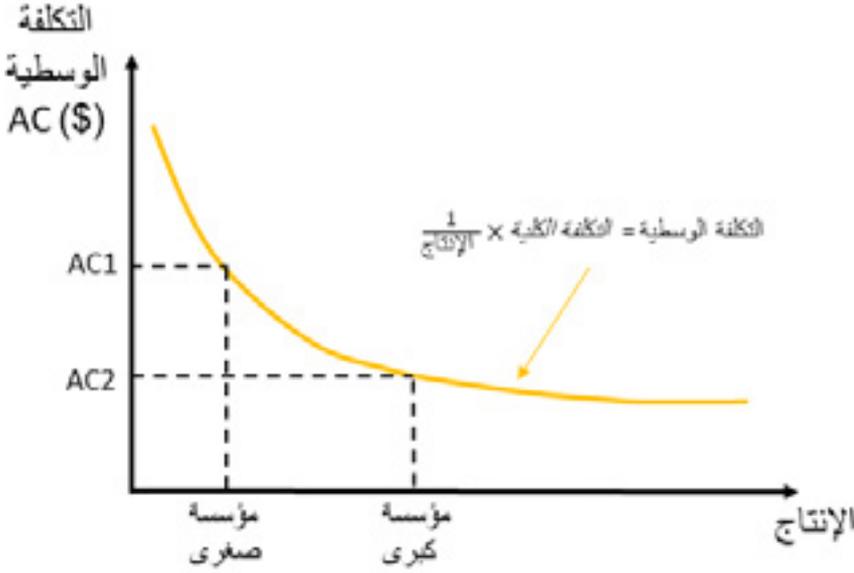
(3) فإذا افترضنا أن عائدات الحجم متناقصة، أي أن زيادة المدخلات بنسبة 10% مثلاً يزيد الإنتاج ولكن بأقل من 10%، وإذا افترضنا خلال هذه التجربة ثبات أجور العمال وثبات السعر التاجيري لرأس المال، فإن زيادة المدخلات عشرة بالمئة يزيد التكلفة عشرة بالمئة، ويزيد الإنتاج بأقل من عشرة بالمئة، أي أن النسبة TC/Q سوف يزداد فيها البسط عشرة بالمئة، وسوف يزداد فيها المقام بأقل من عشرة بالمئة، أي أن AC، أو التكلفة الوسطية للوحدة الواحدة من Q سوف تزداد. وهذا يعني أن الرسم البياني لمنحنى الـ AC سيكون متزايداً (الميل موجب) كلما ازداد الإنتاج.

نلاحظ في الرسم البياني 1 (أدناه) مثلاً منحنى تكلفة وسطية متناقصة، لأن دالة الإنتاج تعبر عن عائدات متزايدة. والعبرة هي أن الصناعات الكبيرة والمتقدمة التي تتميز باقتصاديات حجم متزايدة تحتاج إلى أسواق كبيرة تستوعب إنتاجها حتى تتمكن من تحقيق مثل تلك الاقتصاديات التي لا تتحقق إلا عند مستوى عالٍ من الإنتاج، فلو حاولت شركة صغيرة مثلاً أن تنتج سلعة تتصف دالة إنتاجها باقتصاديات الحجم، أو لو تم إنتاج تلك السلعة في سوق صغيرة، أي سوق قُطر عربي واحد مثلاً، فإن كلفة إنتاج الوحدة الواحدة (السيارة الواحدة مثلاً) ستكون أعلى، لأن المنشأة الكبيرة في السوق الكبيرة وحدها هي من يستطيع أن ينتج عدداً كافياً من الوحدات للوصول لأدنى تكلفة وسطية ممكنة minimum AC. ومن هنا، لو افترضنا جديلاً أن كل قُطر عربي يتمتع بكل مورد



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد



الرسم البياني 1 - التكلفة الوسطية كدالة للإنتاج

والمنشآت المتوسطة والصغيرة قد تشغل النسبة

الأكبر من القوة العاملة في الاقتصاد، فهي تساعد على حل مشاكل البطالة وتأمين لقمة العيش للمواطنين، لكن إسهامها الإنتاجي في الناتج الكلي للاقتصاد بالنسبة لحجم القوة العاملة فيها أقل من المنشآت الكبيرة، أما النهوض الاقتصادي للأمم، فيتطلب البحث عن نشاطات اقتصادية تتميز باقتصاديات حجم متزايدة مثل صناعة الطائرات والأسلحة والاتصالات والبنية التحتية والصناعات التكنولوجية المتقدمة. فهي الأقدر على زيادة الإنتاج الكلي مقابل الزيادة ذاتها في المدخلات، وبالتالي الأقدر على زيادة الناتج المحلي الإجمالي GDP، لأن GDP يساوي السلع والخدمات المنتجة كل عام ضرب سعر كل منها، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن متوسط الدخل الفردي $GDP \text{ per capita} = GDP / \text{population}$ ، أي الناتج الإجمالي على عدد السكان، فإن سيطرة الدول المتقدمة على الصناعات ذات دوال الإنتاج المتمتعة باقتصاديات الحجم هو بالضبط ما يجعلها متقدمة، ومناطقة الاقتصاديات الصاعدة (الصين مثلاً) للغرب على هذا الصعيد من أهم ما يهدد هيمنته العالمية.

ويمكن أن يصفق الغربيون لصناعاتنا الحرفية الصغيرة وإتقانها كثيراً، ولكن مثل تلك الصناعات والنشاطات الاقتصادية، مثل مطعم صغير متميز، أو نقش قصيدة على درع من النحاس، هي بالنسبة للتقدم الاقتصادي أشبه بالبهارات على الطعام، والبهار بحد ذاته لا يملأ بطناً أو يشبع جوعاً، والنتنافس بين الشركات الكبرى والدول المتقدمة اليوم يتمحور حول البحث اليومي عن منحنيات تكلفة وسطية أدنى تقع نقطتها الدنيا عند مستوى إنتاجي Q أعلى، كما في الرسم البياني 2 (أدناه).

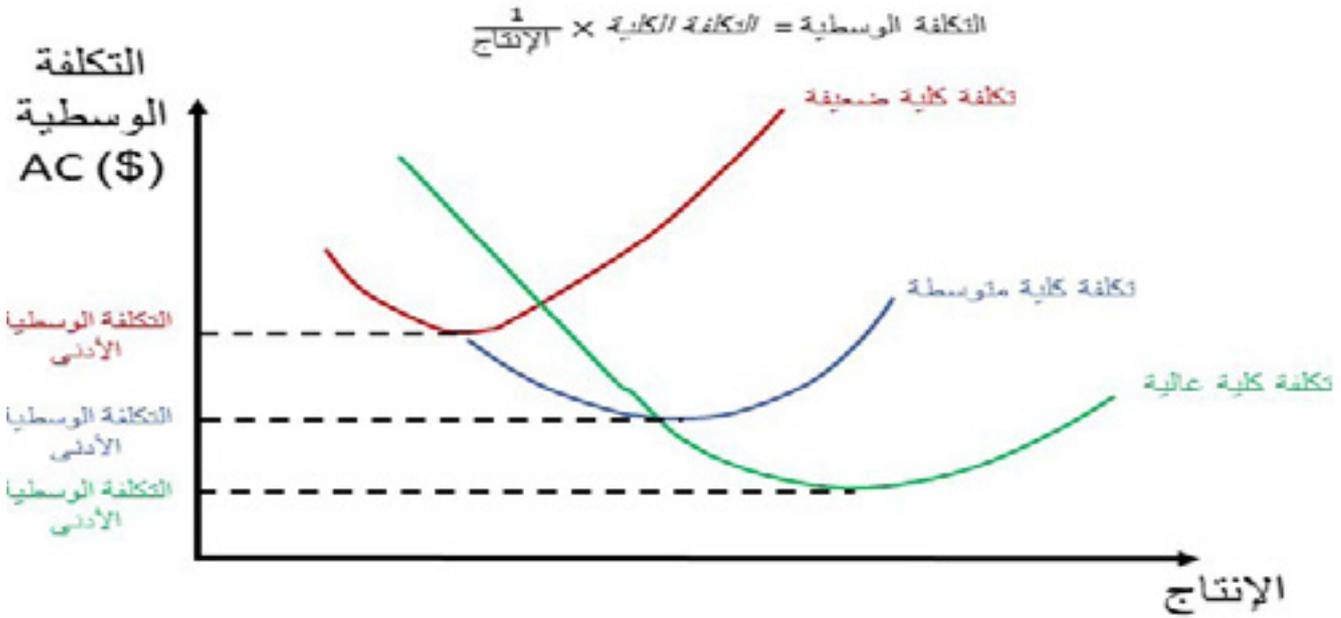
اقتصاديات الحجم من زاوية الاقتصاد السياسي:

من البديهي أن الحديث عن رفع مستوى المعيشة لا يجري بمعزل عن مقاييس العدالة الاجتماعية في طريقة توزيع الناتج المحلي الإجمالي، ولكن دعونا نكبر حجم الكعكة قبل الخلاف على طريقة اقتسامها. فمواردنا القومية تنهب أو تهدر أو تذهب سدى، فيما نستطيع أن نكون من أغنى الأمم وأكثرها تقدماً على وجه الأرض. وهذا هو معنى النهضة الاقتصادية القومية: أن نكبر حجم الكعكة أولاً. ومن يتمعن جيداً فيما سبق، سيجد فيه رداً على ضيق الأفق الذي تنتفخ أوداجه وهو يصيح: يا أخي، مالنا وللوحدة العربية؟! اتركونا من "الشعارات الفارغة"... نريد أن نأكل وأن نعيش. فقد أثبتنا للتو، بالرياضيات، أن من يريد منا أن يأكل ويعيش حقاً عليه أن يفكر جيداً بالوحدة العربية. ومن لديه رد علمي فليفضل.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد



ورب قائل: ماذا عن الدول الصغيرة الناهضة اقتصادياً من غرب أوروبا إلى سنغافورة؟ كيف استطاعت أن تنهض وأسواقها صغيرة؟ والجواب هو أنها صعدت على كتف منظومة الهيمنة الاقتصادية الدولية (أي الإمبريالية، بمصطلح الاقتصاد السياسي)، من خلال التصدير وإعادة التصدير (كما في حالة سنغافورة)، ومن خلال السيطرة على مفصل مهم في المنظومة الدولية (مثل الخدمات المصرفية بالنسبة لسويسرا). ولو قيض لأمم آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية أن تنهض اقتصادياً، كما نهضت الصين على كتف مشروع قومي صيني متمحور ذاتياً في الجواهر ومتوجه خارجياً في الشكل، أي لو قيض لها أن تحقق ذاتها اقتصادياً، وأن تعبئ مواردها في مشروع نهوض قومي، لاختلف حال الوسطاء والأصلاء في المنظومة الإمبريالية، ولاختلف حال الأمم المضطهدة طبعاً.

لا بد من التنبيه أيضاً إلى أن فوائد الوحدة الاقتصادية العربية ليس بالضرورة أن تذهب للعرب، فلو تمكن الاستعمار التركي من مجدداً مثلاً، أو لو تمكن العدو الصهيوني من التغلغل طبيعياً في الأقطار العربية، فإن الفوائد الاقتصادية للوحدة العربية ستذهب لأعدائنا، وسيبدو للسطحي ضيق الأفق أن من يحتلنا يمتلك "سحراً"، لا نعرف كنهه، وأنا ملمعون إن لم نتبعه ونقلده. فيما مشروع تفكيك الأقطار العربية الجاري على قدم وساق اليوم يعني اقتصادياً أن الصناعات والنشاطات الاقتصادية المجدية في الأقطار المفككة ستكون أصغر فأصغر، وأقل قدرة على القيام بأود من يعيش فيها، وحيث كانت الصناعات ذات الدوال الإنتاجية ثابتة العائد والتكلفة مجدية، لن يعود مجدياً إلا النشاط الاقتصادي الأصغر حجماً والأقصر مدى والأسرع مردوداً، أي الأقل إنتاجية. وذلك هو معنى التطبيع أو الالتحاق بالمشروع العثماني أو "المشركي" بالمحصلة. وتساعدنا أدبيات "نظرية التبعية" هنا، من لينين إلى راؤول بريش Raul Prebisch إلى أندريه غوندر فرانك إلى سمير أمين إلى غيرهم، أن نفهم بصورة أفضل كيف تعيد المراكز المهيمنة إنتاج التخلف في الدول المستعمرة والتابعة، أي أن الالتحاق بمركز مهيمن إمبريالي أو صهيوني أو عثماني أو غيره لن يؤدي سوى إلى تعمق التخلف، ولن يؤدي إلى تطور الوطن العربي أو أي جزء منه اقتصادياً، وإلا وقعنا في فخ مقولة "الدور الحضاري للاستعمار"!

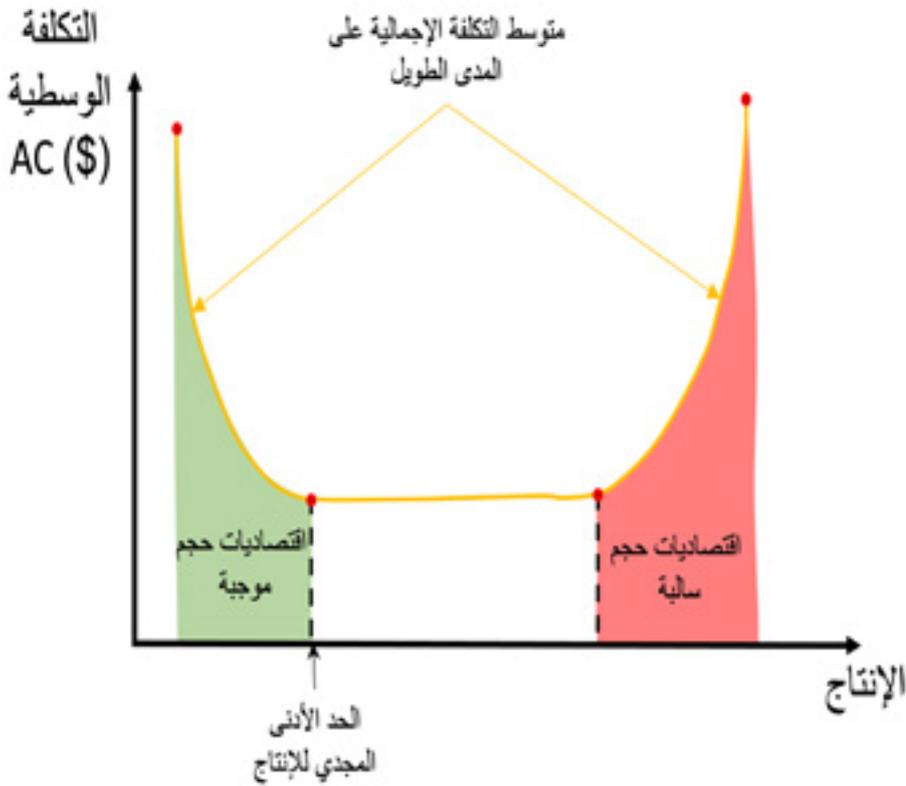
أخيراً، لا يجوز الاستنتاج مما سبق أن التوسع في حجم المنشآت الاقتصادية إلى ما لا نهاية هو أمر حميد، وإلا لكان الاقتصاد القومي كله في الدول المتقدمة اقتصادياً شركة واحدة! فثمة حجم أمثل للمنشأة الاقتصادية تحدده طبيعة دالة الإنتاج وما يحدث لكلفة الإنتاج الكلية عند التوسع، وهناك منشآت تكبر أكثر مما يجب، وبالتالي تصبح تكلفة إدارتها أكبر من فوائد توسعها (وهو ما حدث مع شركة فورد للسيارات مثلاً)، ومن ثم يجري تفكيكها إلى وحدات أصغر أو تضمين بعض عملياتها الإنتاجية لشركات أخرى، وثمة منشآت تستخدم مدخلات محددة قد يرتفع



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

سعرها كلما توسعت، مثل سعر الأرض بالنسبة لشركة زراعية كبرى أو سعر آبار النفط بالنسبة لشركة نفط عملاقة. وعموماً يأتي الرسم البياني لمنحنى التكلفة الوسطية طويلة المدى Long-run AC نموذجياً على مراحل، كما نتبين من الرسم البياني 3، فهناك مرحلة نصل فيها إلى أدنى تكلفة وسطية ممكنة للوحدة الواحدة من السلعة أو الخدمة التي ننتجها، وبعد ذلك قد تعود التكلفة الوسطية للتصاعد، بحسب طبيعة دالة الإنتاج ودالة التكاليف.





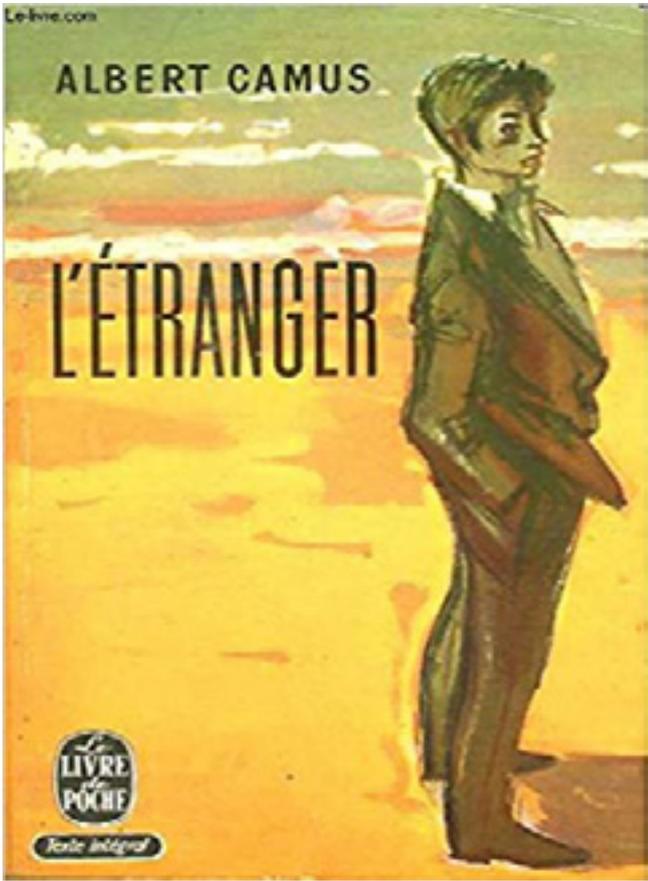
لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

الصفحة الثقافية 1: عن "غريب" ألبير كامو بين الأمس واليوم

مريم نصرالله

حول رواية "الغريب"



"ماتت أمي! لا أدري متى، ربما اليوم، أو قد تكون ماتت يوم أمس، لا أدري...". هكذا يفتتح (مارسو) حكايته، حيث يتلقى رسالة من مأوى العجزة الذي تقيم فيه والدته على بعد أربعة وعشرين كيلومتراً عن مدينة الجزائر. هناك، سيحضر جنازة والدته التي لا يعرف كم عمرها بالضبط، وسيعاود عمله إثر انقضائها "كأن شيئاً لم يكن"، وبعد سلسلة من الأحداث سيتحول إلى مرتكب لجريمة قتل مجانية فجأة يطلق فيها الرصاص على شاب جزائري توديه إلى حبل المشنقة حيث تجتمع الدلائل ضده ولا يرى سبباً يدفعه للدفاع عن نفسه، منشغلاً بملابس القاضي ونبرة المحامي بعيداً عن جوهر القضية.

عام 1942، كتب ألبير كامو روايته "الغريب"، متأثراً بالفلسفة الوجودية التي انطلقت من فرنسا في القرن التاسع عشر وانتشرت في سائر أنحاء أوروبا، وعنها انبثق المذهب العبثي في الأدب الذي يعتبر كامو أحد أبرز أعلامه. وإن كان بعض المفكرين يميلون لاعتبار العبثية عنصراً من عناصر الوجودية، وآخرون يذهبون لاعتبارها فلسفتين منفصلتين تماماً، إلا أن المتفق عليه أن رواية "الغريب" التي تمت ترجمتها إلى أكثر من 68 لغة حول العالم، هي إحدى أهم روايات الأدب العبثي في القرن العشرين، إن لم نقل الأهم على الإطلاق، التي تطرح أسئلة ملحة تصب في صميم وجودنا الإنساني.

تدور أحداث الرواية في الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي، لذلك فإن "الغريب" تبقى في أحد أهم أبعادها رواية كولونيلية أيضاً، فبطلها (مارسو) فرنسي الجنسية من مواليد "مستعمرة الجزائر"، يعاني صراع الهوية والانتماء وعبثية الحياة، وأبطالها الآخرون جميعهم فرنسيون باستثناء "العربي" الذي ينفذ (مارسو) ضده جريمة القتل بدم بارد. وفيما عدا ذلك ستكون إشارة ألبير كامو للعرب عرضية في سياق الرواية وملزمة في كل الأحيان لأسوأ الصفات، فالعربي هو العنيف، والعربي هو من استفز البطل لارتكاب جريمته، والعربي الضحية هو الجاني بالنسبة لشخصية (مارسو)، وإلا لما كان موجوداً بين قضبان السجن يواجه حكم الإعدام شنقاً، إذ يبدو واضحاً في هذا السياق أن "العربي" في الرواية هو شخصية بلا اسم، بلا ملامح، وبلا صوت، فهو هنا مجهول تماماً أو مغيب بالأحرى، ومن المؤكد أن ذلك لم يكن عرضياً.

مع انتقالنا قدماً في أحداث الرواية، سنكون أمام مجموعة من العلاقات التي تتداخل فترسم مصائر شخصياتها، وبين الجميع، يبرز أحد أشهر الشخصيات العبثية في تاريخ الأدب، (مارسو)، محور قراءتنا في السطور التالية.

عن "الغريب" في عصر العبثية:

نشأت العبثية كتيار أدبي في فرنسا في القرن التاسع عشر وانتقلت إلى مختلف أنحاء العالم التي عاشت ويلات الحروب والمآسي، حيث تمحورت في أساسها حول صراع الإنسان بين ميوله لإيجاد هدف لحياته وبين عجزه عن تحقيق ذلك بفعل لا منطقية ولا معقولة الحياة. فركزت على تجارب الشخصيات في الأوضاع التي لا تستطيع فيها إيجاد هدف أصيل في حياتها، وغالباً ما تتمثل هذه الأوضاع بأحداثٍ وأفعالٍ لا معنى لها مطلقاً، ومن هنا استقى ألبير كامو ملامح شخصية «الغريب» (مارسو).



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

يعتبر (مارسو) تجسيدا دقيقاً للفرد اللامنتمي المنفصل عن الواقع والمجتمع، إذ يعيش على هامش الحياة، خارج حيز الزمان والمكان، فالكون عنده مجرد أو هام وتخيلات وليس له نهايات مطلقة، لذلك يختار في ساعاته الأخيرة التمرد على العبث لإيجاد معنى لحياته حيث تنتهي سطور تجربته بصفارة تعلن «بدء رحلتي نحو عالم لا يهمني ولا أبالي به... منفتحاً للمرة الأولى على لا مبالاة العالم الذي صار شبيهاً بي، أخوياً في آخر الأمر». اللامبالاة والضياع والتشتيت، والشك واللايقين بالإضافة إلى الشهوانية وانعدام النزعة الإنسانية والعنصرية هما سمات بطلنا الأساسية، ففي حيز رد الفعل يقبع السيد (مارسو) دوماً، إنه شخصية سلبية خاضعة لظروف الطبيعة والأحداث التي يجد نفسه مقحماً فيها، وتصرفات البشر المحيطين الذين لا يجد أي صلات مشتركة معهم، فكل الأمور سيان عنده. تسأله (ماري) الفتاة التي «يشتهيها» إن كان يحبها، فيقول لها: «لا أعرف، أو بمعنى أدق، لا!». ويتودد جاره القواد (ريمون) لصداقته فيخبره أنه «لا فرق عنده أن يكونا صديقين». كان يستطيع ألا يرتكب جريمة الفطرية، لكنه وجد نفسه تحت حرارة الشمس اللاهبة أمام ضحية اعتقد أنها تحمل سكيناً فأرداها قتيلاً بخمس رصاصات اخترقت الجسد الهامد.

يعيش (مارسو) عزلة تامة عن أي جماعة، فنراه فرداً وحيداً سابحاً في فضاء عالمه الذاتي وأفكاره وتخيلاته الفردية، ومع ذلك، فلا رأي يعبر فيه عن ذاته أو كينونته، والفعل عنده خاصية معطلة، وهنا تكمن الفكرة الأساسية للعبثية؛ لا هدف أصيلاً لحياة الفرد وسط هذا الزحام البشري الهائل، ولا شيء يدفعه لإيجاد معنى حقيقي لوجوده. متى مات (مارسو)؟ هل مات عند ارتكاب جريمته بدم بارد؟ هل مات فعلاً عند تنفيذ الحكم؟ أم عند إقراره؟ أم تراه كان ميتاً منذ اللحظة الأولى التي انكفأ فيها عن الشعور بإنسانيته وتلمس معنى وجوده؟ هل مات عندما استسلم لغربته عن الجماعة؟ أم مات عندما أغرق في ذاتيته وفرديته وسط كل هذه الفوضى؟ أم مات عندما وجد نفسه عنصراً دخيلاً على مجتمع يرفضه ويرفض أمثاله؟ أسئلة ستبرز كثيراً أمامنا عند قراءة الرواية، قد لا نعرف جوابها على وجه الدقة، لكن الأكيد أن عبثية النص لن تعطينا إجابات وجودية مقنعة.

عن «الغريب» في عصر ما بعد الحداثة:

لا شك في أن ظهور المذهب العبثي قد سبق تبلور فكرة ما بعد الحداثة بتعريفها الحالي اليوم، باعتبارها محاولة تفكيك كل ما هو سائد، من أفكار وأيديولوجيات ومفاهيم عقلانية، في سبيل تغييب شعور الفرد ووعيه الإنساني بذاته. إلا أن من يتأمل في المذهبين ومآل شخصياتهما وتأثيرهما في الحياة، أي الإنسان العبثي وإنسان ما بعد الحداثة، سيجد أنهما يلتقيان في مفاصل كثيرة ويشتركان في نقاط جوهرية عدة.

يمكن أن نعتبر ما بعد الحداثة اصطلاحاً قمة النمط الاستهلاكي، فالفرد فيها مستهلك لا منتج، سلعة تباع وتشتري في مزادات السوق العالمية، نحو المزيد من التفكك والمزيد من التشرذم والمزيد من الضياع وفقدان الهوية. في عالم ما بعد الحداثة، لا مكان للمعايير الأخلاقية ولا وزن لفطرة الإنسانية، المشاعر والأحاسيس معدومة، والالتزام، أيما التزام، مرفوض قطعاً لأنه يؤسس للوحدة على أرضية مشتركة بين الأفراد الواعين بحياتهم وحريرتهم. ومن جهة أخرى، لا تقيد العبثية، كمذهب أدبي ساد في أوروبا إثر الحرب العالمية الثانية، الفرد بالكثير من القيم الإنسانية، فقد جاءت أساساً لتهدم أسوار اليقين وتغرقنا «كأفراد» في بحر من الشك والضياع وعدم الثقة في أي شيء وتجاه أي شيء. أخلاقنا نسبية، والهوية والانتماء والوطن والحياة والموت والإيمان والله ذاته مفاهيم مبهمه، ومنكرة في الكثير من الأحيان. إنه مذهب الانفلات عن كل ما هو إنساني، مذهب الانفصال عن الواقع، ببساطة. فبقدر ما نجد أن (مارسو) شخصية عبثية هنا، بقدر ما هو مثال دقيق للإنسان ما بعد الحداثي بمقاييس اليوم.

من هو «الغريب» حقاً؟

يمثل «غريب» كامو أجيالاً من «الغرباء» الموجودين بيننا، وأحياناً يجسد غربتنا نحن في عالم يسير بخطى متسارعة نحو الانحلال وتآكل الذات، إنها أجيال الاستهلاكية الخاضعة لكل أشكال تغييب الوعي وتشويه الفطرة الإنسانية والتدمير من الداخل، فمن هو الغريب اليوم؟



يبرز هذا السؤال الوجودي بكل ما يحمله من احتمالات وأبعاد. هل هو المناضل الذي يجترح بنضاله معنى لوجوده ووجود من حوله؟ هل هو الفرد الفاعل والمؤمن الواعي بالتزامه الأخلاقي تجاه المجتمع والأمة؟ هل هو الشهيد الذي يقدم حياةً مقابل مفهوم «الكرامة»؟ هل هو الكاتب الذي يخط حرفاً منيراً في عتمة الواقع المؤلم؟ هل هو الثائر القادر على أن يقول «لا» صرخة احتجاج مدوية في وجه الظلم؟ يقيناً أن كل هذا يعبر عن الإنسان الواقعي الأصيل الواعي بوجوده والمؤمن بتأثيره في مسيرة الأمم، في حين يقف إنسان العبثية وما بعد الحداثة غريباً على هامش الحياة، كائناً بلا ظل وبلا أي معنى حقيقي لوجوده.

الصفحة الثقافية 2: ثلاثة أشكال للتهريج

طالب جميل

(1)

المهرجون المعارضون

ما حدث خلال السنوات العشر الماضية في بعض الأقطار العربية أكد وبشكل قاطع على أن ما يسمى بمشروع (الربيع العربي) لم يكن سوى مخطط مدروس للقضاء على كينونة الدول وتمزيقها واستنزاف جيوشها وإثارة النزاعات والفتن فيها، ولم يكن الهدف منه القضاء على الفساد وتحسين الظروف الاقتصادية ونشر الديمقراطية وإطلاق الحريات كما روجت الأبقاق البرتقالية في الداخل والخارج.

لقد سارت كل الأقطار العربية التي افتعلت فيها تلك الموجات إلى هاوية سحيقة ودفعت غالبيتها أثماناً باهظة من أجل التغيير، وحدث فيها كل شيء إلا التغيير المأمول. حتى على المستويات الاقتصادية والاجتماعية لم يحدث أي تقدم نوعي مقنع، فالخراب طال جميع القطاعات ورائحة الدم انتشرت في كل مكان وزادت الاحتقانات والفتن بين أبناء الشعب الواحد، وتاهت البوصلة النათية من الأساس.

وتجربة الخراب خلال السنوات المنصرمة أثبتت أيضاً وبما لا يدع مجالاً للشك أن قوى «المعارضة» التي أيدت المشروع منذ البداية في تلك البلدان المتكولة لم تكن معارضة وطنية حقيقية لديها برامج عملية للتغيير تراعي فيها المصالح الوطنية والأمن والسلم الأهلي، بل كانت قوى مأجورة بيد جهات خارجية معادية للأقطار العربية تاريخياً وقبلت بأن تكون أداة لتخريب بلدانها.

إن المعارضة التي تتولى قياداتها التحريض على أفراد الجيوش الوطنية وتخريب مؤسسات الدولة وحث القوى الاستعمارية على ضرب بلدانهم أو حصارها وتأييد الجماعات التفكيرية والظلامية في استباحة وقتل الناس وتدمير البلاد، وعندما تتعرض البلاد لمحنة تذهب للإقامة في الدول الراعية لمشروع الخراب مقابل المال، ليست معارضة وطنية محترمة بل معارضة مشبوهة وخائنة تعمل لصالح أجنداث معادية. وقد تورطت غالبية قوى المعارضة من مختلف التوجهات الإسلامية منها والعلمانية في التآمر على بلدانها، وانقلبت بين ليلة وضحاها على مبادئها وشعاراتها التي تبنتها لعقود طويلة، وادعت بشكل علني أنها ليس لديها مشكلة في التحالف مع الشيطان من أجل «إسقاط النظام في هذا البلد أو ذاك، واستقبلت قيادات صهيونية وجلست معها من أجل التحريض على النظام وباعت كل ما تملك من قيم ومبادئ مقابل ذلك.

لقد أثبتت التجربة أن كثيراً من قوى المعارضة العربية لم تكن سوى أدوات مرتهلة لأعداء الخارج وأن مصالحها وعطشها للسلطة يفوق رغبتها في العمل السياسي من أجل تحسين المستوى المعيشي للإنسان أو من أجل تحقيق العدالة والحرية، وسبق للمعارضة العراقية أن خاضت تجربة العمالة والتدبير وركبت دبابة المحتل بهدف «إسقاط النظام». لقد أن الأوان لظهور قوى معارضة لتلك المعارضة الرخيصة كتيار جديد تقوده مجموعة من المفكرين الوطنيين والمناضلين الحقيقيين، معارضة لديها ثوابت وتضع مصالح الأمة على رأس سلم أولوياتها، وتؤمن أن خلافها مع أي نظام يجب ألا يدفعها للتآمر مع أي قوى خارجية معادية للنظام، وأن تملك برنامجاً وطنياً لتحقيق التنمية الاقتصادية وتلتزم بمشروع وحدوي هدفه التحرر وتحرير كل الأراضي العربية المحتلة وعدم التنازل عن ثوابت الأمة، فمصلحة الأمة العربية مجتمعة لا تتعارض مع مصلحة أي قطر عربي، على العكس تماماً...



اللائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

وأن تملك برنامجاً وطنياً لتحقيق التنمية الاقتصادية وتلتزم بمشروع وحدوي هدفه التحرر وتحرير كل الأراضي العربية المحتلة وعدم التنازل عن ثوابت الأمة، فمصلحة الأمة العربية مجتمعة لا تتعارض مع مصلحة أي قطر عربي، على العكس تماماً...

(2)

”إم بي سي“ والتهرج السياسي

مجموعة قنوات (mbc) أو مركز تلفزيون ”الشرق الأوسط“ هي شركة تلفزة سعودية يملكها رجل أعمال سعودي، وتقوم ببث برامج ترفيهية وإخبارية ولها مشاهدون في جميع أنحاء الوطن العربي. في السنوات الأخيرة سيطرت قناة (إم بي سي) على سوق الإنتاج الفني بحكم ما لديها من قدرات مالية ضخمة وأصبح للبرامج والأعمال التي تقوم بإنتاجها جمهورٌ واسعٌ خاصةً في منطقة

الخليج العربي، وقد لعبت دوراً محورياً في السنوات الأخيرة في الترويج لمرحلة التحول الاجتماعي من الانغلاق إلى مرحلة الانفتاح التي تمر بها السعودية والتخلص من القيود ومظاهر التشدد التي عاشتها البلاد لعقودٍ طويلة.

لكن القناة أخذت على عاتقها أيضاً في السنوات الأخيرة التمهيد والترويج للتطبيع مع العدو الصهيوني، وتهيئة الرأي العام الخليجي تحديداً للقبول بالتطبيع في ضوء إعلان بعض الأنظمة الخليجية مؤخراً عن إبرام اتفاقيات تطبيع وتبادل تجاري وثقافي والدخول رسمياً في سوق الانبساط والعمالة والتنازلات.

فقد قامت القناة بعرض مسلسل درامي (سعودي) من بطولة ممثل سعودي مشهور (ناصر القصبي) بعنوان (مخرج 7) كان يحمل في طياته كثيرٌ من المشاهد التي تروج لأفكارٍ مدسوسةٍ مثل أن (إسرائيل) دولةٌ جارةٌ وشقيقةٌ وليست عدواً أو محتلاً ولا يوجد ما يمنع من التعامل معها على هذا الأساس، وأن الصراع مع العدو الصهيوني موضوع يتحمل الاختلاف في وجهات النظر، كما سوّق المسلسل لفكرة خبيثة مسيئة للتاريخ العربي وللعروبة وهي أن الشعب السعودي أحق بالأموال التي دفعتها السعودية لصالح القضية الفلسطينية والفلسطينيين، وأن القضية الفلسطينية محض هراء، إضافةً إلى تسخيف فكرة زوال الكيان الصهيوني والتخلص منه على اعتبار أن وجوده أمرٌ واقعٌ ولا يمكن تغييره ويجب تقبله والتكيف معه، مع السخرية من التمسك بالثوابت القومية والدفاع عن فلسطين.

كما عرضت القناة مسلسلاً خليجياً أيضاً بعنوان (أم هارون) من بطولة ممثلة كويتية مشهورة (حياة الفهد) يتناول قصة امرأة يهودية عاشت في منطقة الخليج العربي في أربعينيات القرن الماضي، وقد تضمن المسلسل أيضاً كثيراً من المغالطات التاريخية المقصودة لصالح وجود الكيان وإنكار الحق العربي في فلسطين واضطهاد اليهود و الترويج لفكرة أن فلسطين هي (أرض إسرائيل)، حتى أن الأوساط الإعلامية الصهيونية تفاعلت مع المسلسل وروجت له.

لم تكن قناة (إم بي سي) القناة الأولى التي تروج للتطبيع وقبول التعامل مع العدو الصهيوني والاستسلام، فقد سبقها في هذا النهج كثيرٌ من القنوات الإخبارية المشهورة، لكن الأهم من ذلك في هذا السياق أن يتبنى المشاهد العربي فكرة المقاطعة لمثل هذه القنوات المشبوهة وعدم الترويج لخطابها السياسي أو التفاعل معه، والرهان على الوعي بأهمية الإيمان بالعروبة والمقاومة وحق العرب التاريخي في كل شبر محتل من أرضهم.



العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

(3) التهريج في السينما المصرية

لأن السينما المصرية هي الأكثر متابعة وانتشاراً على مستوى الوطن العربي، ولأنها الأكثر زخماً في الإنتاج يظل تأثيرها على الجمهور العربي كبيراً، وما تقدمه من محتوى يمكن أن يكون له تأثير جيد أو العكس على المشاهد، مع الأخذ بعين الاعتبار أن القاعدة الجماهيرية الأوسع للسينما المصرية موجودة في مصر، خاصة وأنها الدولة العربية الأكبر التي يشكل عدد سكانها ربع عدد سكان الوطن العربي تقريباً.

ونتيجة لسيطرة رأس المال على قطاع السينما وتراجع دور القطاع العام قلت جودة المنتج السينمائي وأصبح التركيز على الربح هو الأهم بغض النظر عن الفكرة والمضمون، حيث زاد التركيز على إنتاج الأفلام ذات الطابع الكوميدي التي أصبحت الأكثر رواجاً منذ نهاية التسعينيات، وتحديداً بعد فيلم (إسماعيلية رايح جاي) الذي اكتسح شباك التذاكر في تلك الفترة وحقق أرباحاً مجزية، ومن يومها لم يغب هذا النوع من الأفلام عن الشاشات.

لكن الملاحظة الأهم والأخطر في هذا الصدد هي أن هذه الموجة من الأفلام لا تحمل الغالبية العظمى منها أي مضمون أو محتوى مقنع، وتعتمد بشكل واضح على التهريج والإضحاك الذي يصنعه نجوم الفيلم بحركاتهم الجسدية أو من خلال بعض الألفاظ والمصطلحات التي يتم تداولها خلال الفيلم، أو النكتة السريعة، ويظهر في كثير من الأحيان ضعف الفكرة وهشاشة النص وسذاجة الطرح وقد يتخلل ذلك عيوب كثيرة في الأداء والإخراج، وتزامن ذلك مع اختفاء ظاهرة الكوميديا السوداء التي عادة ما يتخللها كثير من الجدية الساخرة والجرأة في طرح مواضيع يصعب تناولها بشكل مباشر.

لقد صارت هذه النوعية من الأفلام مثل الوجبات السريعة، تُعد على عجل وتُباع بسرعة وتجنبي أرباحاً جيدة، كونها مقبولة لدى شريحة واسعة من الجمهور، من دون الانتباه إلى خطورة تأثيرها على الرأي العام ودورها في إفساد الذوق العام وزيادة ثقافة التهريج لدى العامة والتشويش على أي عمل جيد ومدروس.

وهو ما يجعل القائمين على قطاع السينما في مصر مطالبين بتشديد الضوابط والقيود على الأفلام السينمائية التي تقدم، والتركيز أكثر على تقديم كوميديا هادفة تتناول قضايا الناس والأمة وتعالج مشاكل وهموم المجتمع بطرق جديّة والابتعاد عن الابتذال والإسفاف والتهريج وتسخيف العقول.

الصفحة الثقافية 3:

حتى لا نقع أسرى لشعارات الحرية فنفقد حريتنا: فيلم "أميرة" نموذجاً

كريمة الروبي

منذ أيام قليلة تحدث الرئيس الروسي فلاديمير بوتين خلال مؤتمر صحفي عن الخط الذي يفصل بين إهانة مشاعر أحد وحق الفنان في التعبير وقال (هل إهانة النبي محمد حرية رأي؟ ليست حرية رأي بل انتهاك حرية الدين وانتهاك المشاعر المقدسة لمن يعتنق الإسلام... يجب علينا توفير الحرية بشكل عام لأن مستقبلنا محزنناً ومملاً ينتظرنا دونها، لكن يجب الإدراك أن هذه الحرية تتناقض مع أهدافنا عندما تعبت بحرية شخص آخر)، وكأنه أراد بهذا الكلام أن يؤكد على أن الحرية ليست مطلقة وأن حدودها تنتهي حين تبدأ بانتهاك حقوق ومشاعر الآخرين.

إن هدف أي شعار هو الانتصار للإنسانية، ولكن يقع البعض أسرى للشعارات فيدافعون عنها ويحاربون لأجلها حتى وإن حاربوا الإنسانية ذاتها. إن شعارات الحرية التي انطلقت بقوة خلال ما سُمّي بـ (الربيع العربي)، رغم بريقتها الذي كانت تدغدغ به مشاعر الجماهير، إلا أنها كانت في الأساس ضد الإنسانية، فوقع الكثير من الحمقى أسرى لتلك الشعارات ودافعوا عنها وهم لا يدركون أنهم يرفعون شعارات لحرية الإرهاب في قتل الشعوب.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد



وقد أثارت أزمة عرض فيلم "أميرة" قضية حرية الفن في طرح القضايا، وأن الفن يواجه بالفن وليس المنع. شعاراً جيداً ويؤسس لحرية الإبداع ولا يمكن أن يعارضه أحد، ولكن ذلك يكون في حالة وجود منافسة على أرض الواقع بوجود مؤسسات تستطيع أن تواجه تلك الأفكار بأفكارٍ مقابلة لها.

إن المتابع لواقع الفن بصفة عامة والسينما بصفة خاصة يدرك جيداً أنها تقع تحت سيطرة شبه تامة من جهات ممولة، سواء مؤسسات أو أفراد، تدعمها المهرجانات الدولية التي تمنح جوائزها لمن يقدم فناً يرضى عنه الغرب، وهي صفقة رابحة لكلا الطرفين (اصنع فناً يرضينا، نمحك جائزة ترضيك)، وفي المستقبل تم إهمال الفن من جانب الأنظمة التي لم تعد تهتم سوى بما يعزز سلطاتها ولم تعد صناعة السينما تنال قدراً ولو بسيطاً من دعم المؤسسات الوطنية يمكنها من مواجهة تلك الأفكار. في ظل هذا الخلل في ميزان القوى بين الطرفين يتحول مروجو شعار مواجهة الفن بالفن إلى محاربين في صف المؤسسات المشبوهة.

نعود إلى فيلم "أميرة"، وهو إنتاج مصري أردني فلسطيني مشترك، يؤسس لفكرة الشك في نسب أطفال النطف المهرية من الأسيرة في معتقلات الاحتلال الصهيوني في فلسطين المحتلة، وهي المعركة التي نجح فيها الأسرى الأبطال في الانتصار على الموت البطيء الذي أراده لهم العدو واستطاعوا الحفاظ على امتدادهم عن طريق تهريب النطف إلى خارج أسوار المعتقلات ليتم زرعها في رحم زوجاتهم فينجبوا أبناءاً يحملون أسماءهم وهموم وطنهم ليمتد الكفاح داخل أسوار السجن وخارجها، كما يسعى الفيلم لنشر فكرة "التعايش السلمي" مع العدو ورفض "خطاب الكراهية"، لذا يتبنى الفيلم رواية تخدم العدو، وبالتالي لا يمكن اعتبارها مجرد وجهة نظر ونسمح لها بالمرور تحت دعوى حرية الإبداع خاصة في ظل وضع عربي باتس يهرول فيه الجميع نحو التطبيع المجاني (المرفوض ولو لم يكن مجانيًا...)، ومواجهة هذا التيار الجارف أصبح كالفقير على الجمر. وفي ظل عدم وجود مؤسسات وطنية تستطيع مواجهة تلك الأفكار فإننا لا نملك سوى الضغط من أجل منع تمريرها، خاصة وأن تلك النوعية من الأفلام ليس هدفها الفن بل حصد الجوائز الدولية التي تشبع نهم القائمين عليها للمال والشهرة والنجاح.

إننا لا شك نشق في قدرة الجمهور على الفرز بين الفن الحقيقي القائم على أفكار تحترم قضاياه، وبين الفن الذي يروج جائزةً من هنا أو هناك، ولكن حين يتم إفساح الساحة لأفكارٍ في اتجاه واحد من دون وجود منافس لها، فإننا بذلك نترك الجمهور فريسةً لتلك الأفكار وتتحول شعارات حرية الإبداع إلى حرية نشر الأفكار التي ستقضي على ما تبقى من أمتنا الممزقة والتي تعيش أسوأ فتراتهما حتى تكاد تخرج فيها من التاريخ.

إن أقل ما يمكن أن نطالب به ونضغط من أجل تحقيقه هو التصدي لتسلل تلك الأفكار عن طريق منع تداولها سواء بالفن أم بغيره، ولسنا نبالغ إن طالبنا بمعاينة مروجيها ونبذهم فهم يستحقون ما هو أكثر من ذلك، فلا وجهة نظر في الخيانة وليس بعد تبني أفكار العدو ذنب.

إنه ورغم كل محاولات فرض فكرة "التعايش" و"النضال السلمي" إلا إنه مع أول عملية فدائية يظهر تبني الجماهير العربية للمقولة الخالدة "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة"، وأي محاولة لتغيير الثوابت الراسخة للقضية عند الشعب العربي هي بمثابة خيانة عظمى تستوجب المحاكمة.



العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

قصيدة العدد: لقاء عربي / عدنان الراوي
(في يوم إعلان الوحدة بين سورية ومصر)

لنلتق..
يا طولَ عهدِ الفراقِ
يا طولَ أيامِ الهوانِ المريرِ
يا حسرةَ الحمامِ المخنوقةِ الهديلِ
يا عشها الجميلِ
لنلتق..
ولتلتقِ القلوب..

لنلتق
ولتسبحِ المراكبُ المبسوطةُ الجناحِ
عبرَ المحيطاتِ وعبرَ الرياحِ
حاملةً أشواقنا القديمة..
منا الزنودُ السمرُ حينَ تدفعُ الدهورُ
فتنقضي الدهورُ
زنودنا تلكَ التي أذلتَ الرياحُ
وتمتمتْ للموجِ فهو كالبساطِ
خضناه عبرَ الشمسِ.. عبرَ الليلِ.. عبرَ القدرِ
لنلتقي أشواقنا الجديدة
لنلتقي القلوبَ والقلوبَ
لنلتقي الشمالُ والجنوبَ

لنلتق..
يا طولَ عهدِ الفراقِ
واليومَ عندِ الأخوةِ الضائعينِ
ألفَ من السنينِ
وكلها حنينُ

يا طولَ ما نادَتْ ضفافُ العراقِ
مراكبَ الشمسِ بسفحِ الهرمِ
يا طولَ ما نادَتْ نواصيِ القممِ
في منتهى الأرزاتِ في لبنانِ



لائحة القومي العربي

العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد



نسانم الصحراء في عمان
وطال عهد الفراق
وطال ذل العراق

يا مرسل الغيمة عبر الجبل
ترقص من تل إلى فوق تل
خذا.. صلاة شاعر
لنتلق..

واليوم بين الأخوة الضائعين
ولنتلق الجباه والشفاه
ولنتلق الحياة والحياه
ولنتلق القلوب
وليلتق الشرق بأقصى الغروب
كما التقى الشمال والجنوب

«بلا مقدمة» يفتتح الشاعر العراقي القومي عدنان الراوي ديوان (أيام النضال) من منشورات القاهرة عام ١٩٦١ ومنه هذه القصيدة المكتوبة يوم إعلان الوحدة السورية-المصرية، يروي فيه «حكاية النضال المرير في العراق، قبل تموز، وبعد تموز، والقبل والبعد عهد واحد، غرق فيه العراق في الظلم والدماء والانحراف عن الركب العربي المتحرر.. ودائماً كان النضال في العراق امتداداً للنضال العربي، من أجل التحرر والوحدة..

ومن السجون والمعتقلات..
ومن ساحات الثورة في الوطن العربي..
ومن دماء الشهداء.. كانت هذه القصائد..
وإلى المقيمين خلف أسوار السجون.. وفي ظلام المعتقلات..
وإلى الثائرين في الأرض العربية..
وإلى الشهداء.. أهدي هذه القصائد..»



العدد رقم (79) صدر في 1 كانون الثاني عام 2022 للميلاد

كاريكاتور العدد: ناجي العلي عن لقاءات محمود درويش التطبيعية



انتهى العدد